قضية التنوير

في العالم الإسلامي

محمد قطب

مقدمة

في القرنين الأخيرين كانت حال الأمة الإسلامية قد وصلت إلى حد من السوء لم تبلغه من قبل قط . فقد مرت بالأمة من قبل فترات من الضعف والاضمحلال – كانت تعود بعدها إلى القوة والتمكين – ولكنها لم تكن تضمحل في مجموعها ، بل كان الضعف يحتل جانبا من الساحة بينما يكون جانب آخر ما زال ممكّنا في الأرض ، فحينما اجتاحت جحافل التتار الدولة العباسية في المشرق ، كانت الدولة الإسلامية في المغرب والأندلس ما تزال قائمة ، وحين سقطت الأندلس كانت الدولة العثمانية قد استولت على القسطنطينية وبدأت تتوغل في شرق أوربا .

أما في القرنين الأخيرين فقد استولى الضعف والاضمحلال على العالم الإسلامي كله ، وتمكن الصليبيون في جولتهم الثانية من الاستيلاء على معظم أجزاء العالم الإسلامي ، ثم استطاعوا – بمعاونة الصهيونية العالمية – إزالة الدولة الإسلامية من الوجود .

وما يساورنا الشك في أن فترة الاضمحلال الحالية ستنتهي كما انتهت سابقاتها ، وستعود الأمة الإسلامية إلى التمكين مرة أخرى كما وعد الله ورسوله – ووعده الحق – ولو احتاج الأمر إلى وقت أطول وجهد أكبر مما احتاج إليه الأمر في أي مرة سابقة ، بالنظر إلى حال الأمة وحال الأعداء ..

ولكنا هنا نرصد حركة التاريخ في القرنين الماضيين ، لنتتبع خطوطا معينة في ذلك التاريخ .

لقد أدى الحال السيئ الذي وصلت إليه الأمة ، واجتياح الأعداء لها من كل جانب ، إلى قيام حركتين تصحيحيتين ، تحاولان إصلاح الأحوال ، وإعادة الحياة إلى " الغُثاء " الذي صارت إليه الأمة كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا حين قال : " يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل . ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت " [1] .

---

[1] رواه أحمد وأبو داود .

حركة التصحيح الأولى هي حركة " التنوير " أي حركة الإصلاح على النسق الغربي ، المستفاد من أوربا ، والحركة الأخرى هي الحركة الإسلامية ، أي حركة العودة إلى الإسلام .

بدأت الأولى في مصر وتركيا منذ قرنين من الزمان على وجه التقريب ، ثم سرت في بقية العالم الإسلامي في أوقات متفاوتة ، لا تقل في أي بقعة من العالم الإسلامي عن قرن كامل . وقامت الأخرى في أكثر من بلد من بلاد العالم الإسلامية ، في الجزيرة العربية ، ومصر ، والشمال الأفريقي ، والهند ، ولا يقل تاريخها في أي بقعة من العالم الإسلامي عن نصف قرن على وجه التقريب .

وفي أكثر من كتاب ناقشنا الحركة الإسلامية لنرى ما لها وما عليها ، وكان منهج النقاش أننا عرضنا الأمراض التي كانت تعاني منها الأمة وقت ظهور الحركة الإسلامية ، والأسلوب الذي حاولت به الحركة أن تواجه تلك الأمراض وتعالجها ، والجوانب التي نجحت فيها ، والجوانب التي أخفقت فيها ، ومدى مسئوليتها عن الفشل فيما فشلت في علاجه من الأمراض . ولم نكن في نقاشنا مجاملين للحركة الإسلامية ، لأنه لا مجال للمجاملة في أمرٍ جادٍّ يتوقف عليه مستقبل الأمة . قلئن قال قائل إن الأمراض كانت كثيرة ، وإن الحركة لاقت مقاومة من هذا الجانب او ذاك ، فكل حركة إصلاحية في التاريخ قد واجهت هذه المشكلات ذاتها : كثرة الأمراض ، وتوغلها في جسم الأمة ، وقلة المصلحين ، والمقاومة التي تلقاها الحركة من هذا الجانب أو ذاك . ولكن على قدر إيمان كل حركة بما تقوم به ، وعلى قدر صحة الأدوات التي تستخدمها ، وعلى قدر عزيمتها ومثابرتها ، يكون مدى نجاحها أو فشلها في الإصلاح . وقد قلنا في مناقشتنا للحركة الإسلامية إنها قد تعجلت في مسيرتها ، وأغفلت جوانب كان ينبغي أن توجه إليها عنايتها ، وإن هذا التعجل قد أثر على الحركة ذاتها ، وإنها ينبغي أن تراجع مسيرتها لتصحح مسارها ، وتستدرك ما وقعت فيه من أخطاء ، وتعوض ما وقع منها من تقصير [2] .

وقد آن لنا الآن أن نناقش الحركة الأخرى لنرى ما لها وما عليها ، على ذات المنهج الذي ناقشنا به الحركة الإسلامية ، فنذكر الأمراض التي كانت تعاني منها الأمة الإسلامية وقت ظهور الحركة التي سمت نفسها أحيانا حركة النهضة ، وأحيانا حركة الإصلاح ، وأحيانا حركة التنوير (وهو أحب الأسماء إليها في الوقت الحاضر) ، والأسلوب الذي حاولت به الحركة أن تواجه تلك الأمراض وتعالجها ، والجوانب التي نجحت فيها ، والجوانب التي أخفقت فيها ، ومدى مسئوليتها عن الفشل فيما فشلت في علاجه من الأمراض .

---

[2] انظر بصفة خاصة " واقعنا المعاصر " ، " وهلم نخرج من ظلمات التيه " .

وكما أننا لم نجامل الحركة الإسلامية ، لأنه لا مجال للمجاملة في أمر يتوقف عليه مستقبل الأمة ، فكذلك لا ينبغي أن نجامل الحركة الأخرى ، أولا : ليكون النقاش عادلا ومتوازنا ، وثانيا : لأن أي مجاملة على أساس كثرة الأمراض ، وتوغلها في جسم الأمة ، وقلة المصلحين ، والمقاومة التي تلقاها الحركة ، هي سلاح يمكن لأي حركة إصلاحية أن تبرر به أخطاءها وتقصيرها ، وما أسهل التبرير !

ولكن هناك نقطة واقعية لا بد أن نضعها في اعتبارنا ونحن نناقش كلتا الحركتين ، فلئن كانت كلتا الحركتين قد لاقت مقاومة في مبدأ أمرها من هذا الجانب أو ذاك ، فإن هناك فرقا في جانب مهم من القضية ، هو أن حركة التنوير قد لاقت تشجيعا كبيرا من السلطات سواء المحلية أو العالمية ، بينما الحركة الإسلامية قد وجدت – وما تزال تجد – مقاومة عنيدة من كل السلطات ، سواء المحلية أو العالمية ، وهذا أمر لا بد أن يوضع في الحسبان عند استخلاص النتائج النهائية لكلتا الحركتين .

وليس الهدف على أي حال هو مجرد المقارنة بين منهجين مختلفين في الإصلاح . إنما الهدف أن تراجع الأمة مسيرتها لتحدد لنفسها اتجاهها . فكل أمة حية لا بد أن تراجع مسيرتها بين الحين والحين ، لتعرف هل تقدمت إلى الأمام ، أم انتكست إلى الخلف ، أم أنها واقفة مكانها لا تتحرك .

وحين تقوم الأمم الحية بهذه المراجعة فإنها تنظر في حاضرها لتقوّم مساره إن وجدت أنه لم يحقق آمالها ، ثم تخطط لمستقبلها على ضوء مراجعتها لحاضرها ، فتحاول أن تتدارك النقص ، أو تقوّم الاعوجاج .

وأحد أمراض الأمة الإسلامية في وقتها الحاضر أنها لا تراجع مسيرتها ! ولا تنظر في حاضرها على ضوء خطواتها في الماضي ، ولا تخطط لمستقبلها ! إنما تذهب حسبما يجرفها التيار !

ونعتقد اعتقادا جازما أنه لا تفلح أمة على هذا النحو .. وأنه لا بد أن يقوم نفر من أبناء هذه الأمة – كلٌّ حسبما تؤهله قدرته واجتهاده – بعملية المراجعة والتقويم ، ليرفعوا أمام أمتهم المرآة التي ترى فيها نفسها على حقيقتها ، لتقرر على بصيرة أين تضع أقدامها وكيف تكون خطوتها القادمة .. وهذا فرض كفاية إن لم يقم به القادرون عليه أثمت الأمة كلها ، تصديقا لقوله تعالى : (**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**) [3] .

---

[3] سورة الأنفال [25] .

ولنعلم كذلك أننا محاسبون أمام الله يوم القيامة عن عملنا كله في الحياة الدنيا ، وأن من بين ما نحن محاسبون عليه موقفنا من واقعنا المعاصر : هل ارتضيناه أم كرهناه ؟ وهل حاولنا تغييره أم استسلمنا له ؟ وهل شاركنا في أمراضه ام حاولنا علاجها ؟ وأن المسئولية تشمل الناس جميعاً ، كلٌّ بحسب موقعه وما منحه الله من قدرات ، ولا يقبل من أحد أن يقول يوم القيامة إنني لم أكن من المسئولين ! والله سبحانه وتعالى يقول : (**بَلِ الْأِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**) [4] ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا تكونوا إمعة ، تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن أساءوا أسأنا ! " [5] .

ولنتدبر عبرة التاريخ .. فالأمور لا تجري في الحياة الدنيا بلا ضابط .. إنما تحكم الحياة سنن ربانية ، لا يشذ عنها شيء ولا يخرج عن مقتضياتها شيء . وهي سنن حاسمة صارمة ، لا تجامل ولا تحابي ولا تتخلف ، والفلاح في الدنيا والآخرة مرهون باتباعها ، والعمل بمقتضياتها .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، ووفقنا بفضلك ورحمتك إلى ما تحبه وترضاه .

محمد قطب

---

[4] سورة القيامة [14 – 15] .

[5] أخرجه الترمذي .

أحوال الأمة في القرنين الأخيرين

تمهيد :

نريد في هذا التمهيد أن نبين الأمراض التي أصابت الأمة في الفتـرة الأخيـرة مـن تاريخها ، والتي واجهتها حركات الإصلاح لتحاول علاجها ، كلٌّ منها بمنهجها الخاص .

وليس من الضروري أن تكون هذه الأمراض قد نبتت كلها في هذه الفترة الأخيرة مـن التاريخ ، بل قد نجد بعضها قد نبت قبل ذلك بقرون عدة ، ولكنها تجمعت فـي هـذه الفتـرة الأخيرة بصورة لا مثيل لها من قبل ، حتى كادت تعصف بالأمة عصفاً حين حولتها إلى غثاء كغثاء السيل ، وحين تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها .

وقد نختلف في تصنيف الأمراض ، وفي ترتيبها حسب خطورتها من وجهة نظر كـل منا ، ولكني أعتقد أننا لن نختلف على المجموع ! فسواء وضعنا مرضا معينـا علـى رأس القائمة أو في ذيلها ، وسواء جمعنا جمعا رأسيا أو جمعا أفقيا فالحصيلة النهائية لـن تكـون موضع اختلاف ، أو ينبغي ألا تكون موضع خلاف ، إذا حرصنا على التفتيش الدقيق في كل ركن من أركان الحياة ، ودققنا النظر فيما قد يخفى لأول وهلة من العيوب ..

* * *

من وجهة نظرنا سنضع أمراض العقيدة على رأس القائمة ، ثم نضع أمراض السلوك ، ثم نضع النتائج التي ترتبت على أمراض العقيدة وأمراض السـلوك ، ونـستخرج الحـصيلة النهائية في نهاية المطاف .. وقد يرى غيرنا غير ما رأينا ، ويرتب الأمراض ترتيبا آخـر ، حسب تقديره لخطورتها من وجهة نظره .. وقد يؤدي هذا إلى خلاف في تقدير نوع العـلاج المطلوب لهذه الأمراض ، ولكنه كما قلنا في الفقرة السابقة لا يؤثر في المجموع النهائي ، ما دام الكل داخلا في التعداد !

* * *

أمراض العقيدة :

العقيدة هي لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . ومعيار الصحة والمرض ، الذي نقيس به حال الأمة في فترتها الأخيرة ، هو صورة هذه العقيدة كما أنزلت من عند الله ، وكما علمهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضوان الله عليهم ، وكما طبقتها الأجيال الأولى من

هذه الأمة ، مقارنة بما صارت إليه عند الأجيال الأخيرة من المسلمين . وإذا عقدنا المقارنة على هذا النحو فسنجد مجموعة من الأمراض قد أصابت مفهوم لا إله إلا الله خلال المسيرة التاريخية للأمة ، أفرغتها في النهاية من مضمونها الحقيقي ، ومن شحنتها الدافعة ، وحولتها إلى كلمة تقال باللسان ، والقلب غافل عن دلالتها ، والسلوك مناقض لمقتضياتها .

(1) أول هذه الأمراض هو الفكر الإرجائي الذي يخرج العمل من مقتضى الإيمان ، والذي يقول : الإيمان هو التصديق ، أو هو التصديق والإقرار ، وليس العمل داخلا في مقتضى الإيمان .

وليس بنا هنا أن نناقش هذه القضايا ، قد ناقشناها مناقشة تفصيلية في مجموعة من الكتب من قبل ؛ إنما نحن هنا نعدها عدا فحسب [6] !

(2) ثاني هذه الأمراض – ولا يقل عنه خطورة – الفكر الصوفي ، الذي يطمع العبد في رضا مولاه إذا أدى مجموعة من الأوراد والأذكار ، وأطاع الشيخ واتبع هواه ، دون القيام بالتكاليف التي فرضها الله ، وخاصة الجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والسعي إلى تقويم المجتمع . وهذا بالإضافة إلى تضخم الشيخ في حس المريد ، حتى يصبح واسطة بين العبد ومولاه ، وبالإضافة إلى توجيه ألوان من العبادة إلى بشر من الأموات والأحياء لا توجه إلا لله ، من النذر والاستعانة والاستغاثة والذبح والطلب والرجاء ..

(3) الانحسار التدريجي في مفهوم العبادة من كونه شاملا لكل حياة الإنسان لقوله تعالى : (**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ** ..) [7] إلى انحصاره في الشعائر التعبدية وحدها (دون بقية الأعمال) إلى تحول الشعائر ذاتها إلى أعمال تقليدية تؤدَّى بحكم العادة دون وعي حقيقي بمقتضياتها ، إلى إهمالٍ لبعض الشعائر .. وانتهاء بالخروج من أدائها جملة ، حتى الصلاة !

(4) تحول عقيدة القضاء والقدر من عقيدة نافعة تدفع صاحبها إلى الإقدام والشجاعة في مواجهة المواقف ، إيمانا بقوله تعالى : (**قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**) [8] إلى عقيدة مخذلة ، صارفة عن العمل ، بدعوى أن ما لك سوف يأتيك ، وأنك مهما عملت فلن تحصّل إلا ما هو مكتوب لك ، فلا ضرورة للعمل ! وتحولها

---

[6] راجع إن شئت : " واقعنا المعاصر " – " مفاهيم ينبغي أن تصحح " – " لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة " – " كيف ندعو الناس " – " حول تطبيق الشريعة " .

[7] سورة الأنعام [162 – 163] .

[8] سورة التوبة [51] .

من عقيدة تحمل الإنسان مسئوليته عن عمله حين يخطئ أو يقصر ، إلى مَحطٍّ يحط الإنسان عليه تقصيره وإهماله ، بحجة أن كل شيء مقدر ! ومن عقيدة تحث الناس على العمل على تغيير الواقع أملاً في واقع أفضل إلى عقيدة تحث الناس على الرضا الخانع بالواقع السيء لأنه من قدر الله ، ومحاولة تغييره تمرد على قدر الله !

(5) تحول التوكل على الله من شعور إيجابي ، تصحبه العزيمة وإعداد العدة ، لقوله تعالى : (**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**) [9] إلى شعور سلبي متواكل لا يأخذ بالعزيمة ولا يتخذ الأسباب .

(6) تحول الدنيا والآخرة في حس الناس إلى معسكرين منفصلين ، العمل لأحدهما يلغي العمل للآخر ، بعد أن كان في حس المسلم أن عمله في الدنيا هو سبيله إلى الآخرة ، وأنهما ليسا طريقين منفصلين ولا متضادين ولا متعارضين ، إنما هو طريق واحد أوله في الدنيا وآخره في الآخرة ، عملا بقوله تعالى : (**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**) [10] وقوله تعالى : (**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**) [11] وأن كل عمل المسلم هو للدنيا والآخرة في ذات الوقت بغير انفصال .

(7) تحول الخلاف المذهبي من كونه اختلافا في وجهات النظر ، إلى عصبيات تشغل أصحابها وتفرقهم بعضهم عن بعض حتى في الصلاة .

(8) نشأة الفرق بتأويلاتها الفاسدة وخلافاتها الحادة في قضايا الصفات ، وقضايا القضاء والقدر ، وقضايا الجبر والاختيار .. وشغل الناس بهذه التأويلات الفاسدة عن صفاء العقيدة وسلاستها ووضوحها وبساطتها ، إلى قضايا تستهلك الطاقة ولا تؤدي في النهاية إلى ثمرة في عالم الواقع .

(9) ضعف الإيمان باليوم الآخر ، وانحسار فاعليته في مشاعر الناس وتصرفاتهم .

أمراض السلوك

---

(9) سورة آل عمران [159] .

(10) سورة القصص [77] .

(11) سورة الملك [15] .

في الإسلام يرتبط السلوك ارتباطا وثيقا بالعقيدة . ذلك أن مقتضى العقيدة هو الالتـزام بما أنزل الله . وما أنزل الله يشمل الحياة كلها بجميع جوانبها ، وكل شيء في حياة الإنسان داخل بالضرورة في أحد الأبواب الخمسة التي تشملها الشريعة ، فهو إما حرام وإما حلال وإما مباح وإما مستحب وإما مكروه . ومن ثم ينطبق قوله تعالى الذي أشرنا إليه آنفا (**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي**) ، ينطبق على واقع الحياة كله . وكل مخالفة لما أنزل الله هي نقص في الإيمان . فالإيمان يزيد وينقص . يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، وقد ينتقض انتقاضا كاملا من أصوله إذا أتى الإنسان أعمالا معينة ، يعرفها الفقهاء لا مجال هنا للخوض فيها ، إنما نثبت فقط هذه الحقيقة وهي أن قول المرجئة : إن كفر العمل – على إطلاقه – لا يخرج من الملة . غير صحيح ! فالسجود إلى الصنم عمل وهو مخرج من الملة ، وسب الرسول صلى الله عليه وسلم عمل ، وهو مخرج من الملة ، وإهانة المصحف عمل ، وهو مخرج من الملة ، والتشريع بغير ما أنزل الله عمل ، وهو مخرج من الملة ، وموالاة الأعداء ومناصرتهم على المسلمين عمل ، وهو مخرج من الملة .

ونعود إلى أصل القضية ، وهي ارتباط السلوك بالعقيدة في الإسلام ، بحيث لا يند عنها عمل واحد يأتيه الإنسان بوعيه وإرادته : " حتى اللقمة التي ترفعها إلى في زوجتك كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم [12] ، وحتى ما يبدو أحيانا أنه عمل أرضي بحت . يقول عليه الصلاة والسلام : " وإن في يضع أحدكم لأجرا . قالوا : إن إحدنا ليأتي زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر ؟ قال : أرأيت لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فإذ وضعها في حلال فله عليها أجر " [13] .

ومن ثم يكون المؤمن الحق على ذكر دائم لربه في كل لحظة من لحظات وعيه :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) [14] .

أي في جميع أحوالهم ..

وليس معنى ذلك أن المؤمن الحق لا يسهو ولا ينسى ولا يخطئ .. فكل بني آدم خطاء كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن المؤمن حين يسهو أو ينسى أو يخطئ لا يلج في الغواية ، إنما يعود فيذكر ربه ويستغفر :

---

[12] أخرجه البخاري .

[13] أخرجه مسلم .

[14] سورة آل عمران [190 – 191] .

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) [15] .

فالاستغفار سلوك متصل بالعقيدة يمحو الله به السيئات ..

وهكذا يكون المؤمن – في جميع أحواله – في دائرة العقيدة ، بفكره ومشاعره وسلوكه .

وخلاصة القول أن المعاصي نقص في الإيمان ، وإن كان صاحبها لا يخرج من الملة إلا إذا استحلها ، وإذا كانت معصيته من النوع الذي يخرج صاحبه من الملة .

وفي مسيرة الأمة الإسلامية تكاثرت – مع مضي الزمن – المعاصي الدالة على نقص الإيمان (والمزيلة للإيمان في بعض الأحيان) وإن كان خط السير كان دائم التذبذب بين الصعود والهبوط . ولكنه في القرنين الآخرين وصل إلى حضيض لم يصل إليه قط من قبل .

والهبوط وكثرة المعاصي ليس أمرا من لوازم الحياة البشرية التي لا فكاك منها ..

فلئن كان التفلت من التكاليف والميل مع الشهوات نقطة ضعف في الكيان البشري ، فقد وضع الله لها علاجا شافيا في منهجه الرباني ، حيث قال سبحانه :

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) [16] .

والتذكير ليس كله وعظا كما ظنت الأمة في فترتها الأخيرة ! إنما الوعظ – على ضرورته – دواء مكتوب عليه " لا تتجاوز المقدار " !!

يقول الصحابة رضوان الله عليهم : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة (أي بين الحين والحين) مخافة السآمة !

إنما التذكير يكون بالقدوة الحسنة مع الموعظة .. وقبل الموعظة .. وبعد الموعظة !

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) [17] .

---

(15) سورة آل عمران [135 – 136] .

(16) سورة الذاريات [55] .

(17) سورة الأحزاب [21] .

والذي حدث في تاريخ الأمة أن التذكير بالقدوة الحسنة قد قلت نسبته – وإن بقي الوعظ – فتكاثرت المعاصي وحدثت أمراض كثيرة في السلوك .

ومهمتنا هنا على أي حال هي تسجيل أمراض السلوك كما سجلنا من قبل أمراض العقيدة ، ولكن كان لا بد من الإشارة التي أشرناها إلى ارتباط السلوك بالعقيدة في الإسلام ، لأن الفصل بين الأمرين هو من الأمراض التي أصابت الأمة على يد الفكر الإرجائي ، الذي سبقت الإشارة إليه في أمراض العقيدة !

وقائمة أمراض السلوك قد تطول ! ولكنا هنا نكتفي بذكر أبرزها :

(1) خلف المواعيد والاستهانة بالوعد كأنه غير ملزم لصاحبه ، إنما هو مجرد كلمة يطلقها في الفضاء !

(2) الكذب .. وفي كثير من الأحيان بغير موجب للكذب !

(3) الغيبة والنميمة .

(4) الالتواء في التعامل مع الآخرين ، وتجنب الاستقامة ، واعتبار ذلك من البراعة !

(5) عدم الأمانة في العمل : في الصغير والكبير ، الغني والفقير ، " العظيم " والحقير .. إلا من رحم ربك .

(6) عدم احترام الوقت .. والتفنن في تضييعه و " قتله " بشتى الطرق ، وأهونها الفراغ الطويل الذي لا يمل منه صاحبه ، ولا يشعر فيه أنه قد أضاع شيئا ثمينا كان يجب أن يحرص عليه .

(7) ضعف الهمة للعمل وعدم الرغبة في بذل الجهد .. إلا كرها !

(8) عدم الرغبة في الإتقان .. وقضاء الأمور في أقرب صورة " لسد الخانة " .. وحتى هذه فلا يقوم بها صاحبها إلا مخافة اللوم أو التقريع أو العقاب !

(9) الغش ، وعدم التحرج من إتيانه كأنه حق من الحقوق المشروعة !

(10) الاستهانة بمسئولية الإنسان عن عمله ، وعدم الشعور بالتأثم من الخطأ أو الإهمال إو إضاعة حقوق الناس أو مصالحهم أو أموالهم أو راحتهم أو أمنهم .

(11) إهدار " المصلحة العامة " ، وعدم الإحساس بالمسئولية تجاهها . ليس فقط بسبب انصراف كل إنسان إلى مصلحته الخاصة ، دون نظر إلى ما يقع منه من تجاوزات في سبيل الحصول عليها ، ولكن لانعدام الحس بوجود شيء مشترك يقوم كل إنسان من جانبه برعايته

والحرص عليه ، وتظهر نماذج من ذلك في إتلاف الصنابير العامة وترك الماء يسيل منها بلا حساب ، وتقطيع الأشجار العامة ، وإتلاف نباتات الحدائق ، وإلقاء القمامة في الطرقات العامة ، وتحويل أي مساحة خالية إلى مباءة لإلقاء القاذورات ، أو ما هو أسوأ من ذلك مما يبعث الروائح الكريهة فيها !

(12) الملق لأصحاب السلطة ، بمناسبة وبغير مناسبة !

(13) الرياء في أداء الأعمال ، الذي يحولها إلى أعمال مظهرية لا يقصد بها مضمونها الحقيقي ، سواء كان العمل مشروعا عاما يقصد به الدعاية المظهرية أو عملا خاصا لإرضاء الآخرين ونيل ثنائهم دون إيمان حقيقي به !

(14–16) الثلاثي الرهيب الذي يمثل طابعا عاما للأمة ، ويفسد عليها كثيرا من شئونها : الفوضوية التي تكره النظام ، والعقوبة التي تكره التخطيط ، وقصر النَفَس ، الذي يشتعل بسرعة وينطفئ بسرعة ، والذي يتسبب في فشل كثير من المشروعات بعد التحمس لها في مبدأ الأمر ، إما بسبب الفوضى في الأداء ، أو الارتجال الذي يضيِّع الجهد بلا ثمرة ، أو انطفاء الحماسة وفقدان الرغبة في المتابعة .. أو بسببها جميعا في وقت واحد !

الحصيلة النهائية لأمراض العقيدة وأمراض السلوك :

لعله من الواضح أن هذه الأمراض لا تأتي بخير ! ولكن اجتماعها كلها في الأمة في وقت واحد قد أحدث من الشرور ما يفوق التصور . وما الواقع الذي تعانيه الأمة اليوم في كل اتجاه إلا حصيلة هذه الأمراض ، التي كان اجتماعها بهذه الصورة كفيلا بالقضاء الأخير على الأمة ، لولا فضل الله ورحمته ، ومشيئته المسبقة أن تبقى هذه الأمة على وجه الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها !

ومع وضوح الأمر فإنه يجدر بنا أن نحدد بدقة آثار هذه الأمراض المدمرة في واقعنا المعاصر ، لتكون حاضرة في أذهاننا .

لقد كانت الحصيلة الطبيعية لمجموعة هذه الأمراض هي التخلف ، في جميع الميادين ، وإليك بيانا بأنواع التخلف التي أصابت الأمة – أو تجمعت عليها – في القرنين الأخيرين :

(1) التخلف العقدي

لقد نزلت هذه العقيدة لتؤدي مهمة ضخمة في حياة الأمة التي تؤمن بها ، بل في حياة البشرية عامة ، لا لتكون مجرد كلمة تنطق باللسان ، أو وجدان يُسْتَسَرّ في القلب . إنما لتكون شهادة منطوقة ، ووجدانا حيا في القلوب ، وواقعا مشهودا يراه الناس في سلوك واقعي .

وإذا كان هذا ينطبق على كل رسالة جاءت من عند الله :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) (18) .

فإن هذه الرسالة الخاتمة لها وضع خاص عند منزّلها سبحانه ، وفي واقع الأرض ، وواقع التاريخ :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (19) .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) (20) .

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً) (21) .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (22) .

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (23) .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) (24) .

نعم .. لقد أنزل الله هذه الرسالة لشأن عظيم ، يتعلق بالبشرية كلها ، ليخرجها من الظلمات إلى النور . فلو أنها انحسرت لتصبح مجرد رسالة لأمة من الأمم ، لكان هذا تخلفا عظيما عن الشأن العظيم الذي أنزلت من أجله ، ولو كانت هذه الأمة تشمل مساحة واسعة من

---

(18) سورة النساء [64] .

(19) سورة آل عمران [110] .

(20) سورة البقرة [143] .

(21) سورة المائدة [3] .

(22) سورة الأنبياء [107] .

(23) سورة المائدة [15 – 16] .

(24) سورة الأعراف [158] .

الأرض ، وعددا كبيرا من البشر ، فما بال إذا كان الانحسار قد كان أوسع مدى وأشد خطرا ، بحيث لم تصبح الرسالة فاعلة حتى بالنسبة للأمة التي اعتنقتها وحملت أمانتها ، بل أصبحت مجرد كلمات تنطق باللسان ، ووجدانات مستسرَّة في الضمير ، وبضع شعائر تؤدى من باب التقليد .. ؟!

أي تخلف عن حقيقة الرسالة وأي انحسار ؟!

وأي جرم يرتكبه المسلمون في حق ربهم ، وفي حق أنفسهم ، وفي حق البشرية كلها ، حين تتحول العقيدة على أيديهم من ذلك الكيان العملاق الذي أراده الله ، إلى ذلك القزم الذي لا يكاد يتبين له قوام ؟!

(2) التخلف الأخلاقي

هذا الدين من أول لحظة دين أخلاق :

وكل رسالة جاءت من عند الله كانت رسالة أخلاقية ، تدعو لمكارم الأخلاق ، وترسخ وجودها في الأرض ، ولكن هذه الرسالة الخاتمة كانت هي " التمام " الذي يتمم البناء ، ويعطيه صورته النهائية الفائقة :

" مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين " [25] .

" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [26] .

وكانت أخلاق الأمة الإسلامية في عهودها الأولى مضرب المثل في كل اتجاه .

فحين فتح أبو عبيدة بلاد الشام واشترط أهلها عليه أن يحميهم من الروم مقابل دفع الجزية ، ثم جهز هرقل جيشا ضخما لاسترداد بلاد الشام من المسلمين ، رد أبو عبيدة الجزية لأهل الشام وقال لهم : " لقد اشترطتم علينا أن نمنعكم وقد سمعتم بما يجهز لنا ، وإنا لا نقدر على ذلك (أي على حمايتكم من الروم) ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم " كان هذا عملا أخلاقيا فريدا في التاريخ . وحين أدّب عمر بن الخطاب ابن عمرو بن العاص لأنه ضرب الشاب القبطي الذي فاز عليه في السباق ، وقال لعمرو : " يا عمرو ! متى استعبدتم

---

[25] أخرجه مسلم .

[26] أخرجه أحمد .

الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا " كان هذا عملا أخلاقيا فريدا في التاريخ . وحين حكم القاضي بإخراج الجيش الإسلامي من سمرقند لأنه خالف العهد الذي أبرم بينه وبين أهلها ، كان هذا عملا أخلاقيا فريدا في التاريخ .. وانتشر الإسلام في جنوب شرقي آسيا على يد التجار المسلمين ، لأن الأهالي وجدوا فيهم نموذجا أخلاقيا فريدا حببهم في الإسلام ، فدخلوا فيه بالملايين .. والنماذج أكثر من أن تحصى .

فلو انحسرت تلك الأخلاق حتى صارت محصورة فيما بين المسلمين بعضهم وبعض ، كحال الأخلاق الغربية التي يتعامل بها الغربيون البيض مع بعضهم البعض ، فإذا خرجوا مستعمرين انقلبت تلك الأخلاق أنانية بشعة ووحشية لا إنسانية فيها ، لكانت تلك نكسة غير مقبولة من المسلمين ، الذين أخرجهم الله ليكونوا نموذجا فذا للناس كافة ، يعلمونهم مكارم الأخلاق ، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [27] .

فكيف إذا كان الانحسار لم يكن في تغيير القاعدة ، من قاعدة إنسانية شاملة إلى قاعدة قومية أنانية ، بل كان أدهى وأخطر ، إذ فقد المسلمون أخلاقياتهم في تعاملهم بعضهم مع بعض ، فصاروا أسوأ حتى من الأمم الجاهلية التي لا تعرف مكارم الأخلاق إلا مصالح ومنافع وعصبيات ؟!

وكم قدر الجريمة حين يكون الذين فسدت أخلاقهم على هذا النحو يحملون أسماء إسلامية ، ويحملون شعار الإسلام ؟! والله سبحانه وتعالى يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ) [28] .

وقد كان هذا التحذير الشديد بشأن تخلفٍ واحدٍ وقع من بعض المسلمين ، فيما يتعلق بالقتال .. فكيف حين يكون التخلف في كل شأن ، ومن الكثرة الكاثرة من الناس ؟! كم يكون المقت الرباني كبيرا ؟ وكم تكون النتائج خطيرة ؟

(3) التخلف الحضاري

---

(27) سورة آل عمران [110] .

(28) سورة الصف [2 – 3] .

كيف تكون حضارة بغير جهد يبذل ؟ بغير عزيمة توجّه ؟ بغير قدرة على التنظيم والتخطيط والمتابعة والمثابرة ذات النفس الطويل ؟

لقد كانت الحضارة الإسلامية حدثا فذا في التاريخ .. فقد سبقتها في الوجود حضارات جاهلية كثيرة ، برعت في جوانب من الحياة وغفلت عن جوانب أخرى :

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (29) .

والحضارة الإسلامية كانت فذة في شمولها لكل الجوانب في آن واحد ، وتوازنها بين شتى الجوانب في آن واحد .

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (30) .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (31) .

هي الحضارة التي شملت جسد الإنسان وروحه ، وعقله ووجدانه ، عمله وعبادته ، دنياه وآخرته ، أفراده ومجتمعه ، قيمه المادية وقيمه المعنوية ، وكانت إنسانية النزعة تفتح أبوابها للبشرية كلها ، من شاء منها أن ينهل من مناهلها ، لا تحتجز خيرها عن الناس ، وتتعامل مع أصحاب الديانات الأخرى بسماحة لم تعرف في غير الإسلام .

حضارة قيم إلى جانب النشاط المادي والحسي . ترتاد مجاهيل الأرض ، وتستخرج كنوز الأرض ، وتنشط كل مناشط الأرض ، دون أن تفقد صلتها بربها ، وذكرها لآخرتها ، وحيثما تحركت نشرت الرقي ، ونشرت العدل ، وأخرجت الناس من الخرافة إلى الحق ، ومن الظلمات إلى النور ..

ولو أن هذه الحضارة انحسرت ، فقبعت داخل حدودها ، وانحصرت في ذاتها ، ولم تفتح أبوابها للناس كافة ، لكانت تلك نكسة بالنسبة للأمة التي أخرجها الله لا لذات نفسها فحسب ، ولكن للناس .

فكيف إذا كان الانحسار لم يتناول الكم بل تناول النوع ، فانحسرت تلك الحضارة عن قيمها الأخلاقية ، وعن نشاطها الأرضي ، وعن إبداعها في عمارة الأرض ، وعن التجدد

---

(29) سورة الروم [7] .

(30) سورة القصص [77] .

(31) سورة الملك [15] .

الحي الذي يزيد الحياة ثراء ، وتقلصت حتى صارت جمودا خاملا ورتابة بليدة ، واجترارا لا للأمجاد ، بل لما خلفته النكسات تلو النكسات ؟

أي تقصير وقعت فيه الأمة الرائدة ، التي أخرجها الله لتكون شاهدة على كل البشرية ؟

(4) التخلف العلمي

كيف فقدت الأمة حاستها العلمية التي كانت بها ذات يوم معلمة البشرية ؟!

أما أن الحركة العلمية الإسلامية كانت في وقت من الأوقات – ولقرون عدة – حركة رائدة ، فأمر سجله التاريخ ، وشهد به من أعدائها من شهد ، و " الفضل ما شهدت به الأعداء " كما قال الشاعر القديم . وخذ من نماذج تلك الشهادات شهادة آدم متز في كتابه " حضارة الإسلام في القرن الرابع الهجري " وشهادة جوستاف لوبون في كتابه " حضارة العرب " وشهادة زيجريد هونكه في كتابها " شمس الله تشرق على الغرب " وغيرهم .. وكلهم أشادوا بالحركة العلمية التي كان المسلمون روادها ، وأشادوا بصفة خاصة بأعظم ما كان في تلك الحركة العلمية ، وهو اتخاذ المنهج التجريبي في البحث العلمي ، الذي كان هو أساس كل التقدم الحالي في ميدان العلوم .

كيف فقدت الأمة حاستها العلمية ، وصارت إلى جهل وتخلف في كل فرع من فروع العلم ؟

لا عجب ! حين تفقد الأمة إحساسها برسالتها . حين تفقد القوة الدافعة التي تدفعها للنشاط والحركة . حين ترى أن " العمل " لا ضرورة له . حين تتواكل وتكف عن الأخذ بالأسباب . بل حين تلقي الدنيا كلها من بالها تَوَهُّماً منها أنها بذلك تعمل لآخرتها ، وتهتم بما هو جدير باهتمامها .. فكيف يكون للعلم مكان في حياتها ؟

بل الطامّة كانت حين توهمت الأمة – في تخلفها – أن الاشتغال بالعلوم الكونية نقص في الدين ، وابتعاد عما أمر الله به ! بل وصل الأمر ذات يوم بمعاهد العلم الكبرى – كالأزهر – أن ترى أن الاشتغال بالعلوم الكونية كفر أو كالكفر ، وأن العلم هو علم الشريعة وحده ولا علم سواه !!

وفي القرن الخامس الهجري كان الغزالي يتحدث عن فروض العين وفروض الكفاية فيضع العلوم الكونية في فروض الكفاية التي تأثم الأمة كلها إذا لم يقم القادرون منها بالتمكن فيها ، بينما وصلت الأمة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين إلى اعتبار الاشتغال

بتلك العلوم كفرا أو كالكفر ! ونسيت الأمة أن تنفيذ الأمر الإلهي " بإعداد القوة " لا يمكن أن يتم بغير التمكن في تلك العلوم :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) (32) .

وحتى العلم الشرعي ، الذي زعمت تلك المعاهد أنه هو العلم الحلال وحده ، لم يكن ذلك العلم المتفتح الذي كان في قرون الأمة الأولى ، وأنتج إنتاجا فكريا متميزا ، وثروة باقية نافعة ، إنما كان دراسة تلقينية تعتمد على استظهار ما خلف الأقدمون ، ولا تمنح القدرة على الاجتهاد فيما جدّ من الأمور .. بل تعتبر الاجتهاد ذاته زيغا يعاقب عليه الإنسان بدلا من أن يثاب !

(5) التخلف الاقتصادي

في الوقت الذي كانت أوربا تخوض الثورة الصناعية كان العالم الإسلامي ما زال يعتمد على الزراعة . والزراعة ذاتها تتم بالأدوات وبالأساليب البدائية التي ظلت مستخدمة آلاف السنين دون تغيير . وتقتصر الصناعة على الحرف اليدوية المحدودة الطاقة المحدودة الإنتاج المحدودة التوزيع .

وفي الظروف التي شرحنا جوانب منها من قبل ، من أمراض عقدية وأمراض سلوكية ، وتخلف علمي وتخلف حضاري ، لم يكن التخلف الاقتصادي إلا نتيجة طبيعية لمجموع الظروف .

أما بالنسبة لما كان عليه حال الأمة في قرونها الأولى ، وبالنسبة لما كان يجب أن يكون ، فالانتكاسة مريعة في حجمها ، وفي نتائجها .

في وقت من الأوقات كانت ثروة العالم في يد المسلمين .

كانت التجارة العالمية من الصين شرقا إلى الجزر البريطانية غربا وشمالا في يد التجار المسلمين . وكان البحران الأحمر والأبيض بحيرتين إسلاميتين إن صح التعبير . وكان البحارة المسلمون هم سادة البحار ، العالمين بشواطئها ، وبمدها وجزرها ، وخطوط الملاحة

---

(32) سورة الأنفال [60] .

الصحيحة فيها ، سواء في المحيط الهندي في آسيا أو المحيط الأطلسي في غرب إفريقيا وغرب أوربا ، أو أنهار أفريقيا وآسيا ..

وحين اكتشف فاسكوداجاما طريق رأس الرجاء الصالح ، فقد اكتشفه على هدى الخرائط الإسلامية [33] ! وحين أتم رحلته إلى جزر الهند الشرقية فقد كان قائد سفينته هو البحار العربي المسلم ابن ماجد !!

في ذلك الوقت كانت ثروة العالم في يد المسلمين !

وكان المفترض – لو سارت الأمور بالأمة سيرها الصحيح – أن تولد الثورة الصناعية على يد المسلمين في الأندلس ، أو في غيرها من مراكز العلم والصناعة المنتشرة في العالم الإسلامي .

ولو وقع ذلك لتغير التاريخ !

ولكنه لم يقع .. لأن السنن الربانية لم تكن لتحابي الأمة الإسلامية وهي في انحرافها المتزايد عن طريق الله المستقيم ، وإغفالها المتزايد لحقيقة دينها ، وحقيقة رسالتها ، وقعودها عن اتخاذ الأسباب التي أمرها الله باتخاذها .

ووقع التمكين لأوربا ، بما تعلمته من علوم المسلمين .. ثم احتضن اليهود الثورة الصناعية وأداروها بالربا – في غيبة الأمة الإسلامية التي كانت قمينة أن تدير الحركة الصناعية بغير الربا لو أنها كانت في مكانها الصحيح – وأتاح الربا لليهود السيطرة على العالم كله .. والاستيلاء على فلسطين ! وكان هذا كله إحدى النتائج التي ترتبت على التخلفين العلمي والاقتصادي للمسلمين !

(6) التخلف الحربي

سواء كان التخلف الحربي ناشئا من العوامل التي أشرنا إليها آنفا : أي التخلف العلمي والتخلف الاقتصادي والتخلف العقدي ، والتخلف الحضاري – وهو ما نرجحه – أو كان السبب كما يقول بعض المؤرخين هو تفكك فرقة الإنكشارية التي كانت تمثل العمود الفقري في القوة الحربية للدولة العثمانية ، وعجز الدولة عن تعويضها ، فقد حدث التخلف الحربي بالفعل ، وحدث في أحرج الأوقات ، التي كانت أوربا فيها تزداد قوة في جميع الميادين ، ومن

---

[33] اكتشف فاسكوداجاما طريق رأس الرجاء الصالح لأوربا التي كانت تجهله ، أما المسلمون فقد كان الطريق معروفا لهم ومستخدما قبل ذلك بعدة قرون !

بينها الميدان الحربي ، فنشأ من ذلك اختلال حاد في ميزان القوى ، وصارت الدولة العثمانية هدفا للصليبية من كل جانب ، ففرنسا وبريطانيا من جهة تؤلبان النصارى الداخلين في حكم الدولة العثمانية في أوربا وآسيا ليثوروا على الدولة ويستقلوا عنها ، وروسيا من جهة أخرى تجتاح الممالك الإسلامية في آسيا ، وتستولي عليها ، وتفصلها عن دولة الإسلام ، وتعمل فيها حقدها الصليبي . ثم لم تكتف الصليبية بذلك ، بل سعت إلى احتلال بلاد العالم الإسلامي واحدا بعد الآخر ، حتى إذا جاء القرن التاسع عشر الميلادي لم يكن قد بقي من العالم الإسلامي ما لم تدنسه أقدام الصليبيين إلا جسم الدولة العثمانية ، وأجزاء من الجزيرة العربية .. وبقية الأرض تحتلها جيوش الأعداء ، ولا تكتفي بإذلالها واستعبادها ونهب خيراتها ، إنما تسعى – أول ما تسعى – إلى تنحية الإسلام عن الهيمنة على الحياة ، وإيجاد بديل غير إسلامي ، بل معادٍ للإسلام .

وقد كانت مصر بالذات من أبرز أهداف الغزو الصليبي بالإضافة إلى تركيا ، لمحاولة القضاء على الإسلام في صورتيه السياسية والحربية ممثلا في الدولة العثمانية ، وفي صورتيه الروحية والثقافية ممثلا في الأزهر ، ثم إذا تم إخضاع هاتين القلعتين بالذات ، وإبعادهما عن الإسلام ، فيمكن حينئذ تصدير الفساد منهما إلى بقية العالم الإسلامي ، وبدلا من أن تكون الأفكار المطلوب بثها – والتي تمثل الغزو الفكري – عليها طابع لندن وباريس ، فينفر منها المسلمون في كل الأرض ، يكون الطابع مصنوعا في القاهرة وإسطنبول ، فيسهل تقبل الناس له !

ومن أبرز الأمثلة على ذلك الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ! فقد كان هدفها المعلن هو قطع الطريق الإمبراطوري بين بريطانيا والهند ، ولكن أهدافها الخفية كانت غير ذلك تماما (ولا ينفي هذا وجود التنافس بين بريطانيا وفرنسا ، ورغبة كل منهما أن تزيح الأخرى وتأخذ مكانها !) [34] وإلا فما علاقة قطع الطريق الإمبراطوري بين بريطانيا والهند بتنحية الشريعة الإسلامية في مصر وضرب الأزهر بالقنابل من القلعة ، واستخدامه اصطبلا للخيل ؟! وما علاقة قطع الطريق الإمبراطوري بإثارة النعرة الفرعونية في مصر ، ومحاولة اقتلاعها لا من الإسلام وحده ولكن من العروبة كذلك ؟!

وإذا كان حديثنا هنا عن التخلف الحربي – والآثار التي ترتبت عليه – فلا بد أن نذكر معركة إمبابة الشهيرة التي وقعت بين نابليون وبين المماليك الذين كانوا يحكمون مصر ،

---

[34] ظل الصراع دائرا بين فرنسا وبريطانيا حتى اتفقتا في معاهدة سايكس – بيكو على اقتسام النفوذ بينهما ، أي اقتسام العالم الإسلامي ، وقيام كل منهما – في منطقة نفوذها – بالقضاء على الإسلام هناك !

ويقومون بحمايتها من الغزو الصليبي . فقد حارب المماليك بشجاعة – ولم تكن الشجاعة تنقصهم – وحاربوا بصلابة وحماسة وإصرار ، دفاعا عن مصر ، وعن الإسلام . ولكن ماذا تجدي الشجاعة والصلابة والحماسة أمام التفوق الحربي الكاسح ؟ لقد كانت مدافع نابليون المتفرقة تحتاج إلى فترة زمنية بين كل طلقة وطلقة ، وإذا حميت من توالي الضرب صار مداها أقرب وإصابتها أضعف !

لقد استغرقت المعركة عشرين دقيقة .. تغير بعدها وجه التاريخ !

(7) التخلف السياسي

وقع الاستبداد السياسي مبكرا في حياة الأمة الإسلامية منذ الدولة الأموية التي اشتدت في ضرب أعدائها السياسيين بحجة القضاء على الفتنة التي نجمت عن مقتل عثمان رضي الله عنه ، والنزاع بين علي ومعاوية .

وأيا كانت المبررات ، فقد كانت الفرصة مواتية بعد استقرار الأحوال واستتباب الأمر للأمويين أن يعود الحكم الإسلامي إلى صفائه الرائع الذي كان عليه في فترة الخلفاء الراشدين حيث الشورى الإسلامية حقيقة واقعة ، والعدل الإسلامي واقع مشهود . وقد كانت فترة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بالفعل عودة إلى ذلك الصفاء النموذجي ، وكان يمكن أن تستمر حركة التصحيح حتى تعيد الأحوال إلى صورتها الإسلامية الأصيلة . ولكن الأمويين لم يطيقوا عمر بن عبد العزيز ، وسياسته المثالية ، وما لبثوا بعد وفاته أن عادوا إلى ما كان قد حجزهم عنه من سلب أموال الناس وحكمهم بالقبضة الحديدية .

ثم جاء الحكم العباسي ، فالمملوكي ، فالعثماني ، يرث بعضهم بعضا في طريقة الحكم الاستبدادي ، إلا أن يقيض الله للمسلمين حاكما عادلاً بطبعه ، فيأخذ الناس بالرفق ، ويسوسهم بالعدل . ونماذج الحكام العادلين في الإسلام ليست قليلة كما يزعم المستشرقون وتلاميذهم ، وليست الصفحة كلها سوداء كما يصورونها لأمر يراد ! ولكن الذي نريد أن نبرزه هنا أن الأمة لم تعد تهتم من جانبها بتصحيح مسار الحكم كما أمرها رسولها صلى الله عليه وسلم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : " كلا ، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه عليه قصرا "[35] . وهذا هو الذي نقصده بالتخلف السياسي ، لأنه تخلف عن الصورة التي أمر بها الإسلام ، والتي

---

[35] أخرجه أبو داود .

عاشها المسلمون واقعا أيام الخلافة الراشدة ، سواء من جانب الحكام أو من جانب المحكومين .

لقد شدد الرسول صلى الله عليه وسلم في عدم الخروج المسلح على الحاكم الجائر " إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان " [36] لأن الضرر المترتب على الفتنة أكبر بكثير من الضرر المترتب على الجور . ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر الناس أن يستنيموا للظلم الواقع عليهم ويتركوا مجاهدته بوسائل أخرى غير الخروج بالسلاح (كالوسيلة السياسية مثلا عن طريق أهل الحل والعقد وهم نواب الأمة الراعون لمصالحها) بل قال على العكس من ذلك : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب منه " [37] ، ولكنا لا نعجب للتخلف السياسي إذا وضعناه إلى جانب إخوته من ألوان التخلف في شتى الميادين !

(8) التخلف الفكري

كذلك لا نعجب للتخلف الفكري !

إن الجانب الفكري للأمة – الذي يتمثل في المفكرين وأصحاب الرأي – هو البلّورة التي تنشأ من تشبع السائل في الوعاء . وإذا كان الوعاء في المثل الذي ضربناه هو الأمة ، والسائل هو مجموع الأنشطة الحية التي تقوم بها الأمة في مختلف الاتجاهات ، وتفرزها الحركة الدائبة التي تمثل الكدح البشري ، فإن البلّورة تتكون على مهل في وسط هذا الخضم ، رائقة شفافة ، فتكون هي الخلاصة الصافية ، تعجب الناظر ، وتدعو إلى التأمل والتفكير .

فإذا كان الوعاء كما وصفنا ، فارغا أو شبه فارغ ، والسائل كما وصفنا متميعا لا يتشبع ، فمن أين تأتي البلّورة الرائقة التي تعجب الناظر وتدعوه إلى التأمل والتفكير ؟!

لقد أبدع العقل الإسلامي فكرا رائعا على مساحة واسعة لعدة قرون ، وكانت مزيته العظمى – فيما عدا الشاذ الشاطح منه – أنه نابع من الإسلام ، مستمد من أصوله ، منبثق من ينابيعه الصافية ، غير متأثر بلوثات الجاهلية من حوله . وإذا أسقطنا من حسابنا من تأثروا بالفكر الإغريقي – الفلسفي والكلامي – فإن الفكر الإسلامي الأصيل يظهر جليا في العلوم الشرعية كلها : علوم القرآن وعلوم الحديث والفقه والأصول وعلوم اللغة ، وكلها إنتاج فذ لا

---

[36] أخرجه البخاري .

[37] أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة .

مثيل له في أي لغة أخرى غير العربية ، ولا عند أي أمة أخرى غير الإسلامية ، ولكن هذا – على غزارته وسعة آفاقه – لم يكن هو الإنتاج الفكري الوحيد للمسلمين ، المستمد من أصول إسلامية خالصة ، وإلا فأين نضع كلام ابن خلدون في فلسفة التاريخ ، وكلام الغزالـــي فـــي أغوار النفس البشرية ، وكلام الماوردي والقابسي في التعليم ، وجهود المؤرخين المـــسلمين والجغرافيين المسلمين ، وهذا كله غير الدراسات الأدبية والنقدية التي تتكلم عن إعجاز القرآن أو عن أسرار البلاغة أو عن العلاقة بين المعنى واللفظ .

إنتاج ضخم ، لفكر حيّ متحرك ، لقوم يعيشون الإسلام واقعا ، فيشكل الإسلام فكـــرهم ومشاعرهم كما يشكل سلوكهم ، ويشكل ثقافتهم كما يشكل ممارساتهم .

وكان الفكر الحيّ المتفتح انعكاسا للواقع الحيّ المتحرك ..

فلما خبا المنبع في داخل القلوب ، ذهبت الأصالة المتجددة ، وخَفَت النبض المتـــدفق .. ثم غفا صاحب الفكر .. ثم راح في سبات عميق !

* * *

تلك هي الحال التي واجهتها " النهضة " .

ولا بد أن نذكر بادئ ذي بدء أن " النهضة " ذاتها كانت رد فعل للـــصدمة .. صـــدمة الانهزام أمام الغرب ، والانبهار بالفارق الضخم بين واقع الغرب وواقع المسلمين .. في جميع الميادين !

وقد قلنا من قبل في كتب سابقة إن الهزيمة العسكرية وحدها لم تكن لتؤدي إلـــى ذلـــك الانبهار ، ولا الفارق الحضاري الذي كان قائما بين العالم الإسلامي وبين الغرب الظافر ، ولا حتى اجتماع الهزيمة مع الإحساس بالفارق الحضاري .. إنما الذي يفسر ذلك الانبهـــار هـــو الخواء الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية في جميع الميادين ، وعلى رأسها الخواء العقدي .. الخواء من حقيقة لا إله إلا الله ، فهي – بالنسبة للمسلم – نقطة الاعتزاز وموطن الاستعلاء ، كما قال تعالى مخاطبا الأمة من قبل :

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (38) .

فحين تفقد العقيدة شحنتها الفاعلة ، وتُفَرَّغ من مقتضاها الحقيقـــي ، يمكـــن أن يحـــدث الانبهار بأتفه الأشياء ، ويمكن أن تتضخم الأمور في حس المبهورين مرات فوق مـــرات .. فما بالك حين تكون الحقيقة بهذه الضخامة المفزعة بين واقع الغرب وواقع المسلمين ؟

---

(38) سورة آل عمران [139] .

هَوْلٌ لا يصمد له إلا أولو العزم من الناس ، الذين لا يتزعزع يقينهم في الله ، ولا فـــي الحق الذي أنزله الله ، وإن لفّهم الظلام الحالك في لحظة من اللحظات ..

(وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) [39] .

---

[39] سورة ص [24] .

منهج التغيير في حركة التنوير

لعل أوضح تعبير عن المنهج هو ما قاله أحد دعاته – الدكتور طه حسين – في كتابه " مستقبل الثقافة في مصر " حيث يقول : " إن سبيل النهضة واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب " [40] .

وهو كلام واضح لا لبس فيه ، ولا مجال معه إلى التأويل .

يذكرني بكلام الشاعر الجاهلي القديم " دريد بن الصمة " حين قال :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت ، وإن ترشد غزية أرشد !

مع فارق رئيسي ، أن دريد بن الصمة كان من قبيلة غزية بالفعل ، بل كان شيخها ورئيسها ، بينما طه حسين لم يكن كذلك ! لم يكن من القوم الذين يريد أن ينتسب إليهم !

* * *

نحسب الأجيال الأولى من " التنويريين " – رفاعة رافع الطهطاوي وأمثاله – كانوا مخلصين ، والله أعلم بهم .. لم يكن في قلوبهم ذلك الحقد الأسود على الإسلام ، الذي اكتسبه المتأخرون منهم ، الذين يتحدثون عن المسلمين في شماتة ظاهرة لا حياء فيها ، ويتحدثون عن الإسلام كأنه العدو الأكبر الذي لا بد من إزالته من الأرض !

ولكن الإخلاص وحده لا يغني ، إذا كان المنهج غير صحيح .

لقد رأوا واقع أمتهم السيئ ، وكانوا راغبين حقا في إنقاذ أمتهم : الأمة الإسلامية على وجه التحديد ، بصفتها تلك ، لا بأي صفة سواها ، وظنوا أن السبيل الأوحد للإنقاذ هو تقليد أوربا . فكان خطؤهم في طريقة التفكير ، وليس من فساد في الضمير . وكان الخطأ ناشئا من الهزيمة الروحية التي استولت على أرواحهم تجاه الغرب والحضارة الغربية .. ولم يكونوا من أولي العزم .. لذلك لفّتهم الدوامة وذهبت بهم كل مذهب فلم يقووا على مقاومتها وتحديد مسارهم الذاتي في داخلها .

---

[40] طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، طبعة القاهرة ص 46 .

أما المحدثون فلهم شأن آخر ! إنهم ليسوا حريصين على إنقـاذ أمـتهم " الإسـلامية " بصفتها تلك ، بل هم على العكس من ذلك حريصون على إبعاد هذه الأمـة عـن الإسـلام ، باعتبار أن هذا هو العلاج الذي لا علاج غيره لما أصاب الأمة من الأمراض ، فهم سابحون مع تيار الغرب برغبة ووعي ، ويعلمون على وجه التحديد ماذا يريدون .

ونقاشنا هو مع هؤلاء المحدثين ، لا مع الأجيال الأولى التي عاشت فترة انتقال ، حملت شيئا من ملامح القديم وشيئا من ملامح الجديد (كما يحدث دائما في فترات الانتقال) بينمـا تبلور الوضع الآن مع التنويريين المعاصرين فصار خطا واضحا مناوئا " للـدين " ، أو فـي القليل راغبا في تحجيمه – إن عجزوا عن إزالته – بحيث يصبح كالدين الكنسي في الغرب : علاقة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا صلة لها بواقع الحياة !

* * *

الخطأ الرئيسي في منهج هؤلاء هو عدم إدراكهم الفرق بين حال الأمة الإسلامية اليوم وحال أوربا في عصورها الوسطى المظلمة ، التي لم تجد لنفسها مخرجا منها إلا بنبذ " الدين " أو في القليل تحجيمه بحيث لا تكون له هيمنة في واقع الحياة ، ومناداتهم من ثم بأن عـلاج الأمة الإسلامية يجب أن يكون هو ذات العلاج الذي استخدمته أوربا من قبل ، وأدى بها إلى القوة والتمكين .

وهو خطأ مركب ، متعدد الأطراف .

صحيح أن هناك تشابها بين بعض الأمراض التي أصابت الأمة الإسلامية في القـرنين الأخيرين ، وأمراض كانت موجودة في أوربا في عصورها الوسطى المظلمة ، ولكن النظرة الفاحصة لا بد أن تتبين الفرق في الأسباب ، الذي تترتب عليه فـروق فـي النتـائج ، وإن تشابهت بعض الأعراض .

والسؤال الذي لا يحب التنويريون العلمانيون أن يسألوه ، هو الـسؤال عـن أسـباب الانحراف الذي كان واقعا في أوربا في عصورها الوسطى ، وأسباب الانحراف الذي وجد في الأمة الإسلامية في القرنين الأخيرين بصفة خاصة ، هل هي واحدة حتى يكون العلاج واحدا ، أم أنها أسباب مختلفة ، فيكون لكل حالة علاجها الخاص ؟!

لقد اقتنع التنويريون العلمانيون بادئ ذي بدء بأن السبب هو " الدين " فلم يرغبوا فـي البحث عن شيء وراء ذلك ، وقرروا قرارهم على عجل : إذن أبعدوا الدين !

والحق أن قرارهم لم يكن متعجلا فحسب ، بل كان قرار " المـأخوذ " ، إن صـح أن المأخوذ يستطيع أن يقرر شيئا لذات نفسه على وعي حقيقي وإدراك .

لقد كان الدين داخلا في الحالتين : حالة أوربا في قرونها الوسطى المظلمة ، وحالة العالم الإسلامي في القرنين الأخيرين ، ولكن على صورتين مختلفتين تماما ، لا يكاد يجمع بينهما شيء .

لقد كان الظلام مخيما على أوربا نتيجة اتباعهم دينا أفسدته الكنيسة الأوربية بتصورات منحرفة ، وسلوك طغياني أشد انحرافا ، كان هذا هو كل ما عرفته أوربا من " الدين " ، وكان الظلام الذي غشى العالم الإسلامي نتيجة عدم اتباعهم للدين الصحيح ، الذي أنزله الله عليهم ، والذي مكّن الله لهم به في الأرض عدة قرون .

والفرق واضح – أو يجب أن يكون واضحا – بين الحالتين . ففي الحالة الأولى كان الخلل في المفهوم الديني ذاته ، وقد رأوا أنه لا سبيل إلى التخلص منه إلا بالتخلص من ذلك الدين . وفي الحالة الثانية كان الخلل في سلوك البشر مع الدين الصحيح ، وعلاجه هو تصحيح البشر لسلوكهم المنحرف ، والعودة إلى الالتزام بالدين الصحيح .

وهذا الأمر يحتاج إلى شيء من التفصيل . وقد فصلنا الحديث فيه في أكثر من كتاب ، وخاصة في كتاب " حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية " . ولكن لا بد هنا من بعض البيان – ولو كان مكررا – لأن القارئ قد لا يكون قد قرأ الكتب الأخرى التي عالجت الموضوع من قبل .

* * *

إن أوربا لم تعرف دين الله المنزل على حقيقته التي أنزل بها من عند الله . إنما الدين الذي عرفته هو دين وضعته المجامع الكنسية الأوربية وفرضته فرضا على الناس .

يقول المؤرخ الإنجليزي ويلز في كتابه " معالم تاريخ الإنسانية " : " فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الإنسانية ، أمَّا ما علّمه بولس فهو الديانة القديمة : ديانة الكاهن والمذبح ، وسفك الدماء لاسترضاء الإله " [41] .

ويقول " برنتون " في كتاب " أفكار ورجال " : " إن المسيحية الظافرة في مجمع نيقية – وهي العقيدة الرسمية في أعظم إمبراطورية في العالم – مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين في الجليل . ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية

---

[41] ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، جـ 3 ، ص 705 .

، لخرج من ذلك قطعا – لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية فحسب – بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا " [42] .

وغيرهم وغيرهم كثير ..

ودين عيسى عليه السلام كان عقيدة وشريعة ككل رسالة جاءت من عند الله ، وكانت شريعته هي ما جاء في التوراة مع التعديلات التي أنزلت على عيسى عليه السلام :

(وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) [43] .

(وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْأِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [44] .

ولكن أصحاب الدين الجديد ظلوا ثلاثة قرون غير ممكنين في الأرض ، مضطهدين مشردين لا سلطان لهم ، فاكتفوا بالعقيدة وحدها ولم يفكروا في تطبيق الشريعة ، وظل القانون الروماني هو الحاكم في الإمبراطورية الرومانية التي كانت فلسطين جزءا منها ، ولكن العجب أنه بعد اعتناق قسطنطين الدين الجديد ، وبعد أن أصبح للكنيسة نفوذ متزايد ، لم تفكر في تطبيق الشريعة ، وإنما أخضعت الناس لسلطتها الذاتية لا لسلطة الشريعة ، وظل القانون الروماني هو الحاكم دون تغيير (إلا فيما يسمى بالأحوال الشخصية وحدها) .

ونشأ عن هذا الوضع الذي أصبح فيه الدين عقيدة فحسب ، أن حَمَلَة ذلك الدين تحولوا إلى كهنة [45] ، وصار لهم نفوذ روحي ضخم على الناس ، بوصفهم وسطاء بين العبد والرب ، فلا يصبح الإنسان نصرانيا إلا إذا عمده القسيس ، ولا يستغفر لذنبه إلا على يد القسيس ، ولا تصل إليه رحمة الله ومغفرته إلا عن طريق القسيس ، ولا يعرف " أسرار " عقيدته إلا القسيس .

ومن هذا النفوذ الروحي الضخم بدأ طغيان الكنيسة الأوربية الذي لم يقف عند السلطان الروحي ، بل أصبح طغيانا شاملا يشمل كل جوانب الحياة . فهو طغيان مالي يفرض على الناس عشور أموالهم ، ويفرض عليهم الإتاوات ، ويسخرهم للعمل مجانا في أرض الكنيسة التي أصبحت بمرور الزمن من ذوات الإقطاع ؛ وطغيان فكري يحدد للناس ما يجوز وما لا

---

[42] جرين برنتون ، أفكار ورجال ، ترجمة محمود محمود ص 207 .

[43] سورة آل عمران [50] .

[44] سورة المائدة [47] .

[45] كما يحدث في كل دين يكون عقيدة فحسب ، دون أن يشتمل على شريعة .

يجوز لهم أن يفكروا فيه ، والطريقة التي يفكرون بها ، بما يتلاءم مع فهم رجال الدين ، الذين لهم وحدهم حق تفسير النصوص الدينية ؛ وطغيان سياسي على الملوك والأباطرة يخضعهم لسلطان البابا ، فلا يصبحون حكاما شرعيين إلا بتنصيب البابا لهم (وإن كان البابا – بكل سلطانه هذا عليهم – لم يفرض عليهم تطبيق الشريعة الربانية !) ؛ وطغيان علمي يتدخل في نظريات العلم بالرفض والإباحة ، فلا يبيح للعلماء أن يقولوا إن الأرض كروية ، وإنها ليست مركز الكون ، وتحرّقهم الكنيسة أحياء حين يقولون ذلك ، كما فعل بجوردانو برونو ، وكما حكم على كوبرنيكوس الذي مات قبل تنفيذ الحكم ، وعلى جاليليو الذي تظاهر بالارتداد فنجا ! (وإن كان في فراش الموت ظل يردد أن الأرض كروية حتى مات !) ولقد كان الطغيان العلمي بالذات ، وتحريق العلماء أحياء من أشد ما نفر الناس في أوربا من الدين !

ثم إن هذا الدين كان يحمل – في صورته المنزلة من عند الله – جرعة روحية هائلة ، لتوازن المادية الطاغية التي كان يعيش بها بنو إسرائيل ، الذين أرسل المسيح إليهم خاصة كما جاء في القرآن الكريم : (**وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ**) (46) .

(**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ**) (47) .

ولكن الكنيسة حولته إلى رهبانية ما كتبها الله عليهم ولا على غيرهم .

(**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ**) (48) .

وتحول الدين بذلك إلى دين أخروي لا يحفل بالحياة الدنيا ، ولا يشجع على بذل الجهد فيها ، ولا يرحب بعمارة الأرض ، بل يعتبر ذلك كله استجابة لإغراء الشيطان ، ومجلبة لغضب الله .

هذا الدين – بصورته التي قدمته الكنيسة الأوربية ، الذي صاحبه طغيان الكنيسة وحَجْرها على الأرواح والعقول – لم يكن صالحا للحياة ، لا لأنه دين ، كما ظنت أوربا – بجهالة – وهي تفرّ من طغيان الكنيسة ، ولكن لأنه ذلك الدين المحرف الذي اشتركت في تحريفه العوامل التي أشرنا إليها من قبل .

وليس العجب أن أوربا ثارت على هذا الدين وتمردت عليه في نهاية الأمر ، بل العجب أنها ظلت اثني عشر قرنا كاملة لا تحس بما في حياتها الدينية من انحراف خلال قرونها الوسطى المظلمة !

---

(46) سورة آل عمران [49] .

(47) سورة الصف [6] .

(48) سورة الحديد [27] .

والحقيقة أن أوربا لم تشعر بما في مفاهيمها الدينية من خلل إلا حين احتكت بالإسلام والمسلمين عن طريق المعابر الثلاثة الكبرى التي عبر منها التأثير الإسلامي إلى أوربا ، وهي الحروب الصليبية ، والعلاقات التجارية التي أنشأتها جنوة والبندقية مع العالم الإسلامي ، والعلاقات العلمية والثقافية التي انتشرت من الأندلس وصقلية الإسلامية .

عندئذ رغبت أوربا في الإسلام وأوشكت أن تدخل فيه كما يقول المؤرخ البريطاني ويلز :

" ولو تهيأ لرجل ذي بصيرة نافذة أن ينظر إلى العالم في مفتتح القرن السادس عشر ، فلعله كان يستنتج أنه لن تمضي إلا بضعة أجيال قليلة ، لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغوليا ، وربما أصبح إسلاميا " [49] .

وعندئذ قامت الكنيسة تقاوم النفوذ الإسلامي بوحشية بالغة عن طريق محاكم التفتيش بفظائعها الرهيبة ، كما أوحت إلى كتّابها في الوقت ذاته بتشويه صورة الإسلام ورميه بكل نقيصة لتنفير الناس منه . ونجحت الكنيسة بالفعل في صد أوربا عن الإسلام ، فنشأت الأزمة التي ما يزال العالم كله يعاني نتائجها ، إذ نبذت أوربا دين الكنيسة المقترن في حسها بطغيان الكنيسة وحجرها على الفكر ومحاربتها للعلم ، ولم تدخل في الوقت ذاته في الدين الصحيح ، فنشأت الجاهلية المعاصرة التي تحكم الأرض اليوم إلا ما رحم ربك !

تلك قصة أوربا مع الدين الذي عرفته ومارسته خلال قرونها الوسطى المظلمة ، فحلّ بها ما حل من ظلام وتأخر وجهل وظلم وخرافة وانحصار .

ولم يكن أمامها حل – وقد أوصدت الكنيسة أمامها منافذ الدين الصحيح – إلا أن تنبذ دينها الكنسي ، لتتقدم وتتعلم ، وتتقوى وتتحرر من الطغيان !

والآن فلننظر في صفحة الإسلام !

أي شيء من هذا كله وجد في دين الله ؟!

ليس في هذا الدين ابتداء كهنوت ولا رجال دين .. وليس لأحد من البشر فيه قداسة كقداسة البابا ! إنما فيه علماء وفقهاء ، يحترمهم الناس ويوقرونهم لعلمهم وفقههم لا من أجل مسوح يلبسونها ! وهم – بعلمهم وفقههم – يستنبطون الأحكام من الكتاب والسنة لما يجدّ في حياة الناس ، ولكن اجتهاداتهم ليست وحيا منزلا ، إنما هي اجتهادات تخطئ وتصيب ،

---

[49] ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، جـ 3 ص 966 .

ويناقشها من يؤهله علمه وفقهه لمناقشتها ، فتنشأ ظاهرة الخلاف بين الفقهاء ، وتباركها الأمة لأنها أداة لحيوية الفكر وتمحيص الآراء .

وليس في هذا الدين رهبانية ..

إنما فيه عمل ونشاط لعمارة الأرض ، وفيه فسحة لنوازع النفس النظيفة الخيرة أن تأخذ مجالها بلا تحريج :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (50) .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (51) .

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (52) .

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) (53) .

" مر ثلاثة رهط ببيت من بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا عن عبادته فلما أخبروا كأنهم تقالّوها وقالوا : أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثاني : وأما أنا فأقوم الليل ولا أنام ، وقال الثالث : وأما أنا فلا أتزوج النساء . فلقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأعبَدُكم لله ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " (54) .

ولذلك لم يكن الإسلام دينا أخرويا يهمل الحياة الدنيا ، كما أنه ليس دينا دنيويا يهمل الآخرة ، إنما هو دين يشمل الدنيا والآخرة معا في نسق متوازن جميل :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (55) .

ثم إنه دين شامل يشمل كل جوانب الحياة ..

---

(50) سورة الملك [15] .

(51) سورة الأعراف [32] .

(52) سورة هود [61] .

(53) سورة الجمعة [10] .

(54) أخرجه الشيخان .

(55) سورة القصص [77] .

يشمل العقيدة – وهي حاجة الإنسان الروحية – ويقدم للبشرية عقيدة صافية سمحة سهلة بسيطة ، عقيدة التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة من التصورات الخاطئة أو الخرافة . عقيدة مفتوحة للعقل والوجدان معا ليس فيها " آمن ولا تناقش " كما قالت الكنيسة لأتباعها إنما فيها : (**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً**) [56] وفيه : (**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا**) [57] وفيها للمخالفين المعاندين : (**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) [58] .

ويشمل شعائر العبادة وهي الترجمة الفعلية لهذه العقيدة في صورة صلاة وصيام وزكاة وحج ، مقصود بها صلاح أمر الدنيا والآخرة في آن واحد .

ويشمل الشريعة التي تنظم حياة الناس في الأرض : (**لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**) [59] ، وهي شريعة شاملة لكل مجالات النشاط البشري : السياسية والاجتماعية والاقتصادية وعلاقات المسلمين بعضهم ببعض ، وعلاقاتهم مع أهل الكتاب المساكنين لهم في أرضهم ، وعلاقاتهم مع غيرهم في السلم والحرب والصلح والمهادنة والعهد ... وهي شريعة ثابتة بلفظها ونصها وتفصيلها فيما أمر الله أن يثبّت في حياة الناس ، قابلة للنمو والتجدد فيما أذن الله فيه بالنمو والتجدد ، محكوما بثوابت الشريعة ، بحيث لا يحل حراما ولا يحرّم حلالا ولا يصادم مقاصد الشريعة ، ومن ثم فالحياة في ظلها دائمة التجدد ولكن في حدود الضوابط الشرعية التي تمنع الفساد في الأرض [60] .

ويشمل الأخلاق التي تنشئ " الإنسان الصالح " الذي يعبد الله على بصيرة ، ويمشي في مناكب الأرض ليعمرها بجهده ، ويبتغي فيها من رزق الله الحلال ، ويذكر ربه وآخرته في جميع أحواله (**قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**) [61] .

ويشمل التوجيهات اللازمة لإقامة حياة راشدة في الأرض ، هي التي أنشأت في قرون الإسلام المزدهرة حركة حضارية وحركة علمية فريدة في التاريخ .

تلك آيات الله في دينه المنزل ..

---

[56] سورة النساء [82] .

[57] سورة سبأ [46] .

[58] سورة النمل [64] .

[59] سورة الحديد [25] .

[60] ليس هنا مجال التفصيل في هذا الموضوع ، إنما يُطلب في كتب الفقه والأصول .

[61] سورة آل عمران [191] .

(وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ) [62] .

* * *

إنما حدث الخلل في حياة الناس من عدم اتباعهم لهذا الدين كما أنزله الله .

وقد كان يمكن أن يغفر لهم ذلك لو أن هذا الدين – كما أنزله الله – كان غير قابل في ذاته للتطبيق في عالم الواقع . أما وقد طبق بالفعل عدة قرون ، فلا عذر للناس حين ينحرفون عنه أو يتقاعسون عن تكاليفه ، وعليهم وزرهم ، ويتحملون مسئولية ما يحدث لهم ، وعليهم أن يصححوا خطأهم ويعودوا إلى الصواب .

وهنا تثور اعتراضات وشُبَهٌ تختلط فيها النوايا الطيبة بالنوايا الخبيثة ، والجهل من بعض الأتباع والحقد من الأعداء ، والنظرة السطحية التي لا تتعمق الأمور !

بعضهم يقول : أين هو الإسلام الذي تتحدثون عنه ؟ إنه لم يعش إلا فترة قصيرة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والخلافة الراشدة .. ثم بدأ الانحراف ! فأي إسلام تريدون ؟! ويركز المستشرقون وتلاميذهم على هذا المعنى تركيزا شديدا ، لأمر ظاهر ، هو تخذيل المسلمين عن العودة إلى الإسلام ، بدعوى أنهم يبحثون عن سراب لا حقيقة له ، فقد ذهب الإسلام بعد الخلافة الراشدة ولم يعد له وجود حقيقي في الأرض !

وبعضهم يقول : إن الإسلام كان خطوة تقدمية بالنسبة لعصره ، ولكنه استنفد أغراضه ، وتجاوزته البشرية ، فصار بالنسبة لها اليوم تخلفا لا يليق !

وبعضهم يقول : لو كان الإسلام نظاما صالحا لكل زمان ومكان كما تقولون فلماذا وصل المسلمون إلى الحال الذي وصلوا إليه ، ولماذا لم يعصمهم الإسلام من الهبوط الذي صاروا إليه ؟

وكلها أضاليل !

فأما المقولة الأولى ، التي يقولها بعض الناس بحسن نية حين يعيشون بأرواحهم مع ذلك الجيل الفريد الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعز عليهم أن هذا المستوى الرائع لم يدم طويلا كما كانوا يحبون ، ويقولها بعضهم بسوء نية ، ليخذلوا المسلمين – كما قلنا – عن محاولة العودة إلى الإسلام ، ويروحون في حقد لئيم ينبشون التاريخ ، ليستخرجوا منه شواهد تشفي غليلهم ضد الإسلام ، يتخذونها دليلا على أن الإسلام لم يعش إلا فترة قصيرة لا تستحق أن يفرد لها فصل في تاريخ البشرية ! في الوقت الذي يغضون الطرف فيه عن

---

[62] سورة غافر [81] .

مخازي الجاهلية المعاصرة ولا يكادون يذكرونها ، وهي جرائم وبشاعات تهتز لها السموات والأرض ، إنما يذكرون فقط ما في هذه الجاهلية من معاني الخير والسمو والسموق !!

والرد على هذه المقولة – سواء بالنسبة لمن يقولها بحسن نية أو يقولها بسوء نية – هو التاريخ !

إن الذي ذهب ولم يعد لا يمكن أن يقوم بتلك الفتوحات الرائعة ، التي شملت في أقل من خمسين عاما ما بين الهند شرقا إلى المحيط غربا ، ولم تكن مجرد فتح للأرض ، وإنما كانت فتحا للقلوب ، لتهتدي إلى النور الرباني وتخلع عنها رداء الجاهلية لتدخل في دين الله .

إن التوحيد – بصفائه ونقائه وعمقه وشفافيته – هو أثمن ما أهدته هذه الأمة للبشرية ، لتخرجها من الظلمات إلى النور ، وترفع عنها لعنة الشرك وتدخلها في رحمة الله . فأنّى للذي ذهب ولم يعد أن يقوم بذلك ، ويثابر عليه عدة قرون ؟!

والذي ذهب ولم يعد لا يمكن أن يقدم تلك الحضارة الفذة التي عاشت قرونا جمعت فيها خير الدنيا والآخرة ، وكانت هي باعث النهضة في أوربا حين احتكت بالمسلمين .

والذي ذهب ولم يعد لا يمكن أن يقدم تلك الحركة العلمية الفائقة التي شملت مجالات واسعة من المعرفة ، وكان أبرز ما وفقت إليه هو استخدام المنهج التجريبي في البحث العلمي ، الذي هو أساس كل التقدم العلمي الذي حدث منذ ذلك التاريخ إلى وقتنا الحاضر .

كلا ! لا يمكن أن يكون الإسلام قد ذهب ولم يعد ، وهذا هو إنتاجه الضخم في واقع الأرض !

إنما الذي يمكن أن يقال إنه ذهب ولم يتكرر في التاريخ فليس هو الإسلام ، إنما هو ذلك المستوى الرائع في الأداء ، الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، والذي كانت له بواعث خاصة من شأنها ألا تتكرر ، من بينها وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه بين ظهرانيهم ؛ وتلقيهم للقرآن الذي يتنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم منجما على الحوادث والأحداث ، كأنما هو خطاب مباشر من الله لهم ، يخاطبهم بأعيانهم وأشخاصهم ، يعلمهم ماذا يقولون وماذا يفعلون ، ويستجيب لخطرات عقولهم ونبضات قلوبهم ؛ وأنهم هم الجيل الذي عاش الجاهلية ثم عاش الإسلام ، فوعى النقلة كاملة بين ما كان وما صار ، فكان شديد الحرص على الشحنة كاملة ألا تضيع منها ذرة واحدة .. وتلك كلها ظروف لا تتحقق إلا مرة واحدة لمن شهدها بالفعل . ولكن لو كان الإسلام لا يقوم في الأرض إلا بها لما كلف الله المسلمين بالإسلام إلى قيام الساعة ، وهو

الذي قدر الموت على كل نفس ، ومن بينها نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال له سبحانه : (**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**) [63] .

إن الذي أنشأته هذه الظروف الفذة ليس هو مجرد الإسلام ، إنما هو ذلك المستوى الفريد في الأداء ، الذي لم يتكرر بصورته في جيل آخر . ولم يكن ذلك فرضا على أحد ! إنما تم ذلك بالتطوع النبيل بما لم يفرضه الله على الناس فرضا لأنه يعلم سبحانه أنهم لا يطيقونه ، فلم يفرضه عليهم ، إنما فرض عليهم ما يعلم أنهم يطيقونه ، وأنهم حين يحققونه ينالون خير الدنيا والآخرة ، وقال لهم : (**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا**) [64] ثم قال سبحانه : (**فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ**) [65] فحبب إليهم التطوع النبيل ، فأحبوه ، وأطاقوه ، واستعذبوه ، فكان منهم ما كان من سمو وسموق ، وعلو في الآفاق .

فإذا هبط الناس عن ذلك المستوى الشامخ حين زالت العوامل التي كانت تشحذ النفوس إلى آخر قطرة ، وترفعها إلى أقصى الذروة .. فهل يقال إن الإسلام قد انتهى ؟! كلا ! بل بقي ! وبقي شامخا ، لا قرنا واحدا ولكن عدة قرون !

ونضرب مثالاً للتقريب .

فلنتصور جيلا من الطلاب ، مشحوذة هممهم ، حصلوا على النهايات العظمى في جميع المواد .. ثم جاء من بعدهم جيل وصل إلى تسعين في المائة في تقديره العام .. كيف نحكم عليه ؟

حقا إننا إذا قسناه إلى الجيل الأول فقد هبط عنه عشر درجات ! ولكن انظر من الجهة الأخرى ، إنه ما زال في مستوى الامتياز !

لقد كانت الأجيال التالية لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم متميزة على كل الأرض ، ولعدة قرون ، وفي مجالات متعددة ، وإن كانت بطبيعة الحال دون ذلك الجيل الفريد الذي لم يتكرر في التاريخ !

ومع ذلك لا نقول إن ذلك الجيل الفريد ذاته قد ذهب ولم يعد !

إنه بعظمته الفذة ما زال يشرق بنوره على الأجيال .. كل الأجيال .. تقبس منه قبسات ، أو تحاول أن تقبس منه قبسات !

---

(63) سورة الزمر [30] .

(64) سورة البقرة [286] .

(65) سورة البقرة [184] .

إن هناك نجوما في السماء يقول الفلكيون إنها تبعد عن الأرض آلاف السنين الضوئية ، ولكنا نراها – رغم بعدها الهائل هذا – لأنها ساطعة النور .

وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هم كالنجوم .

وإن بيننا وبين تلك النجوم نيفا وأربعة عشر قرنا من الزمان .. ولكنها ما تزال تضيء .. وما تزال تهدي .. وما تزال تقود . وتلك حكمة وجودها الذي كان في التاريخ !

ثم إنه إذا كان لم يتكرر جيل بأكمله كجيل الصحابة رضوان الله عليهم ، فإن الساحة لم تخل في أي جيل من الأجيال من نماذج فردية سامقة تذكّر بذلك الجيل ، وتحيي ذكره في القلوب .

أما الإسلام .. الإسلام في صورته العادية التي يقدر عليها كثير من البشر ، فقد ظل يعمر الأرض عدة قرون ، ويمتد بالفتح في الأرض ، ويمتد بالنور في القلوب .

* * *

أما المقولة الثانية التي تزعم أن الإسلام كان شيئا تقدميا بالنسبة لزمنه ، ولكنه يعد الآن تخلفا ورجعية ، فهي مقولة الشيوعيين ، كانوا يتنفجون بها في أيام سطوتهم ، لما لم يستطيعوا – بكل الجهد الذي بذلوه – أن ينكروا أن الإسلام كان نقلة ضخمة لا تؤهل لها كل الأحوال المادية ولا الاقتصادية ولا الاجتماعية ولا الفكرية ولا الخلقية التي كانت سائدة في الأرض كلها قبل ظهوره ، قالوا : صحيح ! ولكنه أخذ دوره التاريخي ، والآن تجاوزته الحتمية التاريخية فأصبح متخلفا عن ركب الزمن !

وقد عاش هؤلاء حتى رأوا كذب دعاواهم كلها في كل اتجاه !

كانوا يقولون إن الشيوعية هي نهاية التطور التاريخي ، وإن أي تقدم جديد سيكون في داخل الشيوعية ، لأنها هي الأول والآخر ، لم يكن قبلها شيء ، ولا يكون بعدها شيء !! حسب المراحل التاريخية الخمس المزعومة : المشاعية الأولى – الرق – الإقطاع – الرأسمالية – الشيوعية الثانية والأخيرة !

وانهارت الأسطورة أمام أعينهم فلم يملكوا لها ردا .. ولم ينته التاريخ !

وكانوا يقولون إن مراحل التطور حتمية ولا يمكن تخطيها أو تعديلها : لا تسبق أمة أجلها ولا تستأخر عن الحتمية التاريخية ! لذلك قالوا إن بريطانيا ستكون أول دولة شيوعية في أوربا ! ويعلم الناس كلهم أن بريطانيا ما تزال رأسمالية حتى هذه اللحظة . ويعلم الناس جميعا أن الدولتين اللتين أصبحتا شيوعيتين : روسيا والصين ، لم تمرا بالمرحلة الرأسمالية (

التي هي حتمية في زعمهم قبل الوصول إلى الشيوعية) بل قفزتا رأسا من الإقطاع إلى الشيوعية ، ثم انهارت الشيوعية في روسيا ، وانهارت معها كل دعاوى الحتمية التاريخية .

أما مقولتهم عن الإسلام فهي منهارة من أول الطريق !

ولكن شيوعيي الأمس أصبحوا اليوم ديمقراطيين ! وصاروا يدافعون بحرارة عن الديمقراطية الحزبية التعددية ، ليستخدموا المدفعية الجديدة من مواقعهم الجديدة ضد الإسلام !

ومن موقعهم القديم ، ومن موقعهم الجديد ، يرددون المقولة ذاتها : إن الإسلام نظام متخلف لا يتمشى مع التطور التاريخي ولا مع أسس " الدولة الحديثة " !

ونريد أن نحدد بالضبط في أي المجالات تجاوزت البشرية الإسلام ، فأصبح الإسلام بالنسبة إليها تخلفا لا يليق بها أن ترجع إليه !

أما التقدم العلمي والتكنولوجي والمعلوماتي الذي تملكه البشرية اليوم فلا شك أنه أضخم شيء عرفته البشرية في تاريخها كله .. ولكن ما علاقة هذا بدعوى تأخر الإسلام ؟ كان يمكن أن تكون له علاقة لو أن الإسلام – كالكنيسة الأوربية – كان يحارب العلم ، ويحرّق العلماء الذين يكتشفون أموراً جديدة في الكون . أما والإسلام هو الذي أنشأ الدفعة العلمية التي أدت إلى الحاضر ، فكيف يكون التقدم العلمي في ذاته تجاوزا للإسلام ؟!

لو قالوا إن العالم اليوم متقدم علميا وتكنولوجيا ومعلوماتيا بينما المسلمون متأخرون ، لقلنا نعم ! هذا أمر أوضح من أن يجادل فيه أحد . أما أن يقال إن البشرية تجاوزت الإسلام لأنها تقدمت علميا عن العهد الذي كان الإسلام مزدهرا فيه ، فما أظن عاقلا يقوله ، ولا عاقلا يصدقه !

فلنترك هذه ، ولنستعرض نواحي " التقدم " الذي تقدمته البشرية فتجاوزت به الإسلام !

فلنأخذ الانحلال الخلقي !

يا لله ! ما أهوله !

لم يمر على البشرية عهد كانت الفاحشة فيه على قارعة الطريق ، تنساب ليل نهار ، وتنصب قاذوراتها في مجاريها الدنسة ، في البيوت والغابات والحدائق والمسارح والمراقص والحانات كما هي اليوم ، على الرغم من كل التبذل الذي يحكيه التاريخ عن الإغريق القدماء والرومان ، ومزدك الفارسي ، وغيرهم من " عظماء التاريخ " !

ولم يمر على البشرية عهد كانت الفاحشة الشاذة بجميع ألوانها يُشرَّع لها في البرلمانات ، وتُقنَّن القوانين لحمايتها ، وتؤسَّس النقابات لتدافع عن " حقوقها ! " وتتبنى " المحافل الدولية

! " قضيتها فتجعلها إحدى الحريات الرسمية التي تطالب الدول بإتاحتها لأفرادها وإلا عوقبت بمنع المعونات عنها (!!) .. كما هو حادث اليوم [66] .

اللهم إن كان هذا تقدما فإني أشهد شهادة الحق أن دينك يحرمه ، وأنك قلت في محكم التنزيل : (**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**) [67] .

ولنأخذ " تقدما " آخر .. في الخمر والمخدرات والجريمة !

لم تبلغ نسبتها في التاريخ كله ما بلغته اليوم ، في العالم الغربي خاصة !

ولنأخذ " تقدما " آخر في تفكك روابط الأسرة ! بل في مبدأ الأسرة ذاته !

بل لنترك هذه المجالات كلها التي تشملها " الحرية الشخصية " .. والتي يبدو واضحا أن الإسلام لن يتجاوب معها في يوم من الأيام .

خذ مجال السياسة الدولية .

هل مر عهد من الظلم الدولي " المقنن " يفوق ما هو قائم اليوم فيما يسمونه " الدول العظمى " أو " القوى العظمى " ؟

ما قضية " الفيتو " في مجلس الأمن ؟

الدولة تكون معتدية جهارا نهارا ، مرتكبة كل الكبائر في العدوان على حقوق غيرها وكرامتهم ، ويجتمع المجلس الموقر ، ويجمّع أدلة الإدانة التي لا مجال للطعن فيها ، فإذا بمندوب الدولة العظمى يرفع أصبعه " فيتو " فتقف الأرض كلها مكتوفة لا تستطيع أن تنطق بحرف !!

هل هذه هي العدالة التي تجاوزت البشرية بها الإسلام في السياسة الدولية ؟!

وخذ مجال الاقتصادي الدولي .

ماذا تفعل الدول " المتقدمة " بالدول الصغيرة والدول الضعيفة والدول المتخلفة اقتصاديا ؟! تحاصرها . تعصرها . تأكلها . تذلها . لتستمتع هي بالمتعة الحرام على حساب الجائعين والفقراء الذين يعيشون تحت مستوى الآدمية بينما الترف يأكل المترفين على الجانب الآخر .

---

(66) هددت هيئة الأمم في مؤتمر السكان ومؤتمر المرأة أي دولة لا تبيح أقصى درجات التحلل الخلقي للأولاد والبنات والشواذ بقطع الإعانات الدولية عنها !!!

(67) سورة النور [19] .

هل هذه هي العدالة التي تجاوزت بها البشرية الإسلام في عهدها الحاضر ؟!

أما يستحي الذين يقولون إن البشرية اليوم قد تجاوزت الإسلام فصار بالنسبة إليها رجعية غير لائقة ؟!

* * *

أما المقولة الثالثة فلا تقل تهافتا عن المقولتين السابقتين .

يقولون لو كان الإسلام صالحا لكل زمان ومكان فلماذا تخلف أهله ؟ ولمَ لم يعصمهم الإسلام من الهبوط ؟

هل يوجد نظام – سماوي أو أرضي – يعمل من ذات نفسه بطريقة آلية دون أن يكون البشر هم العاملين فيه ؟ أو ليس هذا مخالفا لما قرره الله وقدره : أن يكون وضع الإنسان غير وضع الكائنات الأخرى ، فلا يقهر على الهدى كالسموات والأرض ، وإنما يختار ، ويتحمل مسئولية الاختيار :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) [68] .

وحين يختار الضلالة أيقال لو كان الهدى هدىً حقيقيا لعصمه من الضلال ؟!

وماذا فعلوا هم بالديمقراطية حين أرادوا " تشغيلها " في البلاد العربية والإسلامية كأنها جهاز يدور من تلقاء نفسه ! هل دارت ؟ هل أفرزت للناس حريات وضمانات ، وعصمتهم من طغيان الدولة ، ومن السجن والاعتقال والتعذيب الوحشي الذي لا مثيل له في التاريخ ؟!

أم لا بد أن يتشبث الناس بحقوقهم لكل لا يعتدى عليها ، ولا بد أن يجاهدوا من أجلها لكي لا تسلب منهم ؟

لا بد من فعل إيجابي من جانب البشر ، يجعل النظام يعمل ، ويستمر في العمل .. فإذا لم يقم البشر بذلك الفعل الإيجابي .. إذا تواكلوا وتقاعسوا وفرّطوا وقعدوا ، فمن يحميهم من النتيجة الحتمية التي قررتها السنن الربانية ؟

لقد ضرب الله للأمة الإسلامية في كتابه المنزل مثلا من أمة سابقة أُنْزِلَ إليها كتابٌ فلم تحفظه ، وحولته إلى " تراث " .. فضُربت عليها الذلة والمسكنة :

---

[68] سورة الأحزاب [72] .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (69) .

فماذا فعلت الأمة الإسلامية بكتابها الذي مكنها الله به في الأرض قرونا متوالية وقت أن كانت مستمسكة به ؟

حولته إلى " تراث " ! تراث ورثته عن الآباء والأجداد . وليس هو كتاب الساعة الذي يلزمها العمل به في كل أمر وفي كل اتجاه !

وتواكلت ، وتقاعست ، وفرطت ، وقعدت .. فصارت غثاء كغثاء السيل .

ولقد مر بنا ذكر الأمراض التي أصابت الأمة ، سواء أمراض العقيدة أو أمراض السلوك ، والتي تجمعت كلها وتركزت في القرنين الأخيرين ، فأدت بالأمة إلى ما أدت إليه .

وما بنا أن نكرر الإشارة إلى تلك الأمراض .. ولكن يلزمنا التنبيه إلى أمور .

أولا : أنه لا يوجد نظام – سماوي أو أرضي – يعمل من تلقاء نفسه دون أن يقوم البشر من جانبهم بما يتطلبه تحقيق النظام في عالم الواقع من أعمال وتكاليف . وأن مزية الإسلام – التي نتحدث عنها دائما – ليست أنه يعمل من تلقاء نفسه إذا انصرف الناس عن العمل بمقتضياته – فهذا مستحيل في عالم البشر – إنما مزيته أنه حين يعمل الناس به (وذلك في مكنتهم دائما إذا أرادوه) يؤتي ثمارا من نوع لا يستطيع نظام آخر في الأرض كلها أن يؤتي ثمارا مثلها . ويكفي أن يكون هو الشيء الوحيد الذي يقبله الله من الناس يوم القيامة ويدخلهم به الجنة ، بينما كل شيء سواه باطل وقبض الريح :

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (70) .

أما في الحياة الدنيا فهو يؤدي – حين يعمل به الناس حق العمل – إلى التمكين الذي يشتهيه البشر ويسعون إلى إحرازه ، مع انفتاح بابين من أبواب التمكين لا ينفتحان لغيره ، هما البركة والطمأنينة :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) (71) .

---

(69) سورة الأعراف [169] .

(70) سورة آل عمران [85] .

(**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**) (72) .

(**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**) (73) .

ثانيا : أن الصحة لا تمنع المرض إذا وجدت أسبابه !

فكما أن الجسم السليم عرضة لأن يمرض إذا وجدت دواعي المرض ، ولا يقال عندئذ كيف أتاه المرض وقد كان سليما من قبل ، فكذلك النفس السليمة عرضة لأن تمرض إذا وجدت دواعي المرض ، ولا يقال عندئذ كيف أتاها المرض وقد كانت سليمة من قبل !

إنما الذي يمكن أن يقال شيء آخر : أن الصحة يفترض أن يكون معها قدر من المناعة يقاوم بعض الأمراض على الأقل ، فيمنع توغلها في الجسم (أو في النفس) إلى أمد معين . أما أن هناك مناعة كاملة شاملة تمنع المرض إطلاقا فهذا ليس من طبع البشر لا في أجسامهم ولا في نفوسهم ، إنما هو من خصائص الملائكة الذين خلقهم الله من نور شفيف ، والذين (**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**) (74) والذين (**لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**) (75) .

ويشهد الواقع التاريخي أن الإسلام قد منح الأمة في عمومها قدرا من المناعة ضد أمراض معينة لفترة طويلة من الزمن ، لم تتح لأي أمة أخرى مرت بظروف كظروفها ، فلم تنتشر فيها أوبئة الانحلال الخلقي ، والتفكك الأسري ، والخمر والمخدرات والجريمة إلا في القرن الأخير حين جاء الغزو الغربي فنشر فيها تلك الأوبئة بعد أن كانت قواها قد أنهكت بسبب أمراضها الداخلية ، فلم تعد تستطيع رد العدوان ، ولا وقف الأوبئة عن السريان .

ثالثا : أنه يظل هناك فارق أساسي بين حال أوربا في قرونها الوسطى المظلمة ، التي لم تجد لها علاجا إلا نبذ دينها والانسلاخ منه ، وحال الأمة الإسلامية في الفترة الأخيرة من مسيرتها التاريخية ، وإن وُجدت أعراض متشابهة في بعض المجالات بين هذه الحال وتلك الحال .

---

(71) سورة النور [55] .

(72) سورة الأعراف [96] .

(73) سورة الرعد [28] .

(74) سورة الأنبياء [20] .

(75) سورة التحريم [6] .

الفارق أنه في حال أوربا كان الخلل في المنهج ذاته ، فكلما أمعنوا في اتباعه زادهم خبالا وأسلمهم إلى البوار . وفي حال الأمة الإسلامية كان المنهج سليما والخلل في عدم الاتباع .. ولكن كلا الخللين أحدث أمورا تشابهت هنا وهناك .

لقد كانت الصوفية قد أحدثت في حياة المسلمين المتأخرين قريبا مما أحدثته الرهبانية في حياة النصارى في عصورهم الوسطى ، من إهمال الحياة الدنيا ، وإهمال عمارة الأرض ، والنظر إلى السعي فيها على أنه ملهاة عن الهدف الأسمى ، وهو طلب الآخرة الذي ينبغي أن يستحوذ على قلوب الناس وعقولهم ولا ينشغلوا عنه بأمر آخر . مما أدى – أو ساعد على على الأقل – في انتشار الفقر والمرض والتخلف .

كما أدت تلك الصوفية إلى الغلو في رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من غلو النصارى في عيسى عليه السلام ، وإلى التعلق بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسيلةً للخلاص في الآخرة بدلا من العمل ، كما تعلق النصارى بالإيمان بعيسى ربًّا ومخلِّصا باعتباره هو وسيلة الخلاص .

كذلك أدت الصوفية إلى التعلق بالخوارق ، سواء في قضاء الحاجات أو شفاء الأمراض أو غيرها من الأمر ، بدلا من اتخاذ الأسباب مع التوكل الحق على الله ، كما كان حال العامة في أوربا في عصورها المظلمة . وعوّدهم ذلك على التواكل ، وعدم القدرة على بذل الجهد المنظم المثمر ، وتقبل الواقع السيئ – الذي ينشأ من ذلك – على أنه قدر محتوم من عند الله لا مفر منه ، بل لا يجوز التفكير في الفرار منه ، لأن ذلك يعد نقصا في الإيمان !

تلك وأمثالها وقع التشابه فيها بين حال الأمة الإسلامية في عصورها الأخيرة وحال أوربا في عصورها المظلمة . ولكن يظل الفارق الرئيسي قائما يميز هذه عن تلك ، سواء في الأسباب أو في وسيلة العلاج . فالأسباب عند أوربا – كما قلنا أكثر من مرة – هي في المنهج ذاته .. أي في الدين الذي اعتنقته أوربا خطأً على أنه دين الله . ومن ثم فالعلاج هو الخروج من ذلك الدين . أما عند الأمة الإسلامية فالأسباب هي ترك الدين الصحيح ، ومن ثم فالعلاج هو العودة إلى هذا الدين !

وقد يقول قائل – بحسن نية أو بسوء نية – إن الدين حين يفسد يصير إلى تلك الصورة التي صار إليها في أوربا العصور الوسطى وفي أمة الإسلام المتأخرة . فالدين إذن هو الداء الذي يجب أن يُتَخَلّص منه لأنه عرضة دائما للفساد ، وفساده يؤدي إلى الشرور !

وهي قولة مضللة .. وإن تذرع بها الملاحدة في جميع العصور !

إن الدين الذي ليس له كتاب محفوظ بحفظ الله يمكن أن يصير إلى أي شيء بلا ضابط ، ويمكن للبشر أن يحدثوا فيه أي انحراف تمليه عليه أهواؤهم أو شهواتهم أو جهالتهم ، ولا يكون عند الناس مرجع واضح للتصحيح . أما الدين المحفوظ بحفظ الله فليست له – في أصوله – إلا صورة واحدة ، هي التي نزل بها من عند الله . ينحرف الناس عنها يمنة أو يسرة ، ويطول انحرافهم أو يقصر ، وتظل هي ثابتة لا تتغير لأنها محفوظة بحفظ الله ، يرجع إليها الناس في أي لحظة يريدون التصحيح :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (76) .

ولا يتعارض هذا مع حقيقة التغير الدائم في مظاهر الحياة البشرية ، فهذا أمر قد أذن الله به ، وأذن بالاجتهاد فيه ، ولكن الله لم يأذن بتغيير أصول دينه ، كما أنزلها وثبّتها في كتابه المنزل ، وكما علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، وعلمها علماء الأمة الموثوقون لأجيال الأمة جيلا بعد جيل . وهذه هي التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتي " (77) .

وحين تحيد الأمة عنها – لسبب من الأسباب – يحدث المرض في حياة الأمة ، ويكون العلاج دائما هو العودة إلى الأصل المحفوظ .

*   *   *

هذا الفارق الضخم بين انحرافات أوربا النابعة من دينها المحرف الذي لم تعرف غيره ، وانحرافات المسلمين النابعة من تركهم أصول دينهم المحفوظ بحفظ الله ، هو الذي غاب – في زحمة الأحداث – عن التنويريين ، فدعوا إلى ما دعوا إليه من نبذ الدين ، أو في القليل تحجيمه في الحدود التي حجَّمته فيه أوربا ، ومنعه من الهيمنة على الحياة .

وهو خطأ لا يمكن الاعتذار عنه .. فإن أول دعوى التنويريين هي استخدام العقل ، والعقلانية . ولو استعملوا عقولهم – كما ينبغي لهم – لعرفوا هذه الحقائق التي سردناها ، ولعرفوا الفارق في الأسباب ، الذي يترتب عليه الفارق في وسيلة العلاج .

ولكنهم – في زحمة الأحداث ، أو قل في زحمة الانبهار – لم يكونوا في وعي مما يقولون ومما يفعلون ، وإن خيل إليهم أنهم في قمة الوعي .. وفي قمة النور !

---

(76) سورة الحجر [9] .

(77) أخرجه الشيخان .

الإنجازات الكبرى لحركة التنوير

تحرير المرأة – حرية الفكر – الحرية السياسية

لا يترتب بالضرورة على خطأ المنهج عند التنويريين – أو غيرهم – أن تكون كل أعمالهم خطأ لا صواب فيه . ففي كل جاهلية من جاهليات التاريخ – وهي مناهج خاطئة بطبيعة الحال – كانت هناك بعض الأعمال المفيدة ، وبعض التصرفات المحمودة ، وبعض الخير في بعض النفوس . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الجاهلية العربية : " خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا " [78] وقال عليه الصلاة والسلام عن حلف الفضول : " دعيت إلى حلف في الجاهلية في بيت ابن جدعان لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت " .

ولا بد أن نذكر لحركة التنوير أنها أزالت كثيرا من أوهام الصوفية وخرافاتها وتعلقها بالخوارق بدلا من اتخاذ الأسباب ، وأنشأت أجيالا من المتعلمين قد برئوا من هذا الداء .

حقيقة إن التنويريين لم يفعلوا ذلك من أجل تنقية العقيدة مما كان قد شابها من الفساد على أيدي الصوفية . فتصحيح العقيدة ليس داخلا في حسابهم منذ البدء . وإنما هم فعلوا ذلك وهم يجاهدون لاقتلاع الدين من جذوره ، أو – إن عجزوا عن ذلك – فلتحجيمه في أضيق نطاق ممكن . ولكنهم من حيث أرادوا ولم يريدوا أنتجوا أجيالا لا تتعلق بتلك الخرافات ، وتسعى إلى اتخاذ الأسباب ، فكانت هذه الأجيال فيما بعد مددا طيبا لحركة إسلامية مستنيرة بعيدة عن الأوهام والخزعبلات ، ملتفتة إلى حقيقة الدين الواعية ، لا إلى الخدر الذي تحدثه الأوهام .

ولا بد أن نذكر لحركة التنوير كذلك أنها أفلحت في تغيير النظرة إلى العلوم الكونية التي كانت منبوذة في الدراسة قبل ذلك ، ينظر إليها إما على أنها دنس لا ينبغي للمسلم أن يدنس به نفسه ، أو على أنها علوم كفر لأنها مجلوبة من عند الكفار ، فلا ينبغي للمسلم أن يتعلمها أو يعكف عليها ، وحسبه العلوم الشرعية ، ففيها وحدها النجاة من النار !

وحين أدخلت بعض هذه العلوم في الأزهر لقيت معارضة شديدة في مبدأ الأمر ، ولكن الحركة التنويرية صمدت للمعركة ، واستطاعت أن تحول التيار .

---

(78) أخرجه البخاري .

وحقيقة إن تحويل التيار قد أسهم فيه الاستعمار بالقسط الأوفر ، ففي مصر مثلا وضع دنلوب مستشار وزارة المعارف في عهد كرومر منهجا تعليميا لمدارس تخرج علمانيين بعيدين عن تأثير الدين ، ويسَّر لخريجيها (حتى من المدرسة الابتدائية) أن يجدوا وظائف في دواوين الحكومة ، بينما خريجو الأزهر لا يجدون بعد تخرجهم عملا يرتزقون منه ، فتحول تيار التعليم الحيّ عن الأزهر إلى تلك المدارس العلمانية [79] ، وفي كل بلد إسلامي دخله الاستعمار تكرر الأسلوب ، وتكررت الأهداف .

وأيًّا كان الذين أسهموا في تحويل التعليم ، وأيًّا كانت نواياهم ، فقد كان هذا التحويل تمهيدا طيبا للحركة الإسلامية المستنيرة التي جاءت فيما بعد ، والتي شملت لأول مرة أطباء ومهندسين وعلماء في الذرة وفي الكيمياء والفيزياء والرياضيات ، تواجه الواقع العالمي الجديد بأدوات ذلك الواقع ، ولا تكتفي بالعلوم الشرعية في المواجهة الحادة بينها وبين أعدائها في الداخل والخارج سواء ، ولا تتهم بأنها غير " مثقفة " ، وهي تحتل في كثير من الأحيان مكان الصدارة في هذه العلوم !

ولكن المعركة الكبرى التي خاضتها حركة التنوير ، وأنجزت فيها أكبر إنجازاتها ، كانت معركة " التحرير " التي شملت ثلاثة ميادين رئيسية : " تحرير المرأة " و " حرية الفكر " و " الحرية السياسية " ، ويحتاج كل منها إلى شيء من التفصيل ، لنعرف ما لها وما عليها ، والنتائج التي ترتبت عليها .

قضية تحرير المرأة :

كانت المرأة في الشرق الإسلامي قد عادت كمًّا مهملا قريبا مما كانت عليه في الجاهلية ، لا تتعلم ، ولا يؤخذ رأيها في أخص شئونها وهو الزواج ، ويعتدى على حقها في الميراث إما بعدم التوريث أصلا أو بسلب ميراثها عنوة واقتدارا دون أن تجد من تشكو إليه . لا تتعدى اهتماماتها شئون المنزل القريبة ، والرعاية التقليدية للأطفال ، بالإضافة إلى مجموعة ضخمة من الخرافات عن " المشايخ " وكراماتهم ، والعفاريت وما يفعلونه بالبشر ، والمعلومات التفصيلية عن النساء الأخريات : ماذا يلبسن وماذا يأكلن وماذا يجري لهن مع حمواتهن ، ومع سلائفهن ومع أزواجهن .. ومكانتها عند الرجل هي مكانة الخادمة . وتعيّر بأن مهمتها أن تحمل وتلد وتنشّئ الأطفال ولا زيادة !

---

[79] اقرأ قصة دنلوب ومنهجه إن شئت في فصل " الغزو الفكري " من كتاب " واقعنا المعاصر " .

وكان هذا الوضع بطبيعة الحال مخالفا مخالفة صريحة لما جاء به الإسلام ، فقد ساوى الإسلام بين المرأة والرجل في الإنسانية ، وفي العبودية لله وحده بلا شريك ، وفي الجزاء الأخروي ، وإن كان فرّق بينهما في بعض التكاليف وبعض الاختصاصات :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) (80) .

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) (81) .

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) (82) .

" خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي " (83) .

وكانت الصحابيات – رضوان الله عليهن – مثلا في أخلاقهن ، ووعيهن ، واهتماماتهن ، ونشاطهن ، مع طهر الإسلام ، ونظافة الإسلام ، والانضباط الكامل بآداب الإسلام : لا اختلاط ، لا خلوة مع الأجانب ، لا تخلّع ولا تكسّر ولا تميّع ، ولا إبداء زينة لغير المحارم ، كما أمر الله .

ولكن المجتمع الإسلامي كان قد انحدر عن المعايير الإسلامية الأصيلة في كثير من الأمور ، وربما كان انحداره في شأن المرأة أشد لأنها مستضعفة ، والظلم دائما يكون على المستضعفين أشد .

ولم يكن من المتوقع أن يحدث تغيير في أحوال المرأة ، إلا بعودة صادقة إلى الإسلام ، تعود به في نفوس معتنقيه إلى صورته الأولى التي أنزلها الله في كتابه ، وعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، ومارسها المجتمع المسلم فترة من الوقت في واقع الأمر ..

ولم يكن في الأفق ما ينبئ بشيء من ذلك في المستقبل القريب . فالإسلام كان قد تحول في الفترة الأخيرة إلى تقاليد خاوية من الروح ، يحافظ عليها من أجل أنها تقاليد ، ولكنها لا

---

(80) سورة الروم [21] .

(81) سورة آل عمران [195] .

(82) سورة النساء [19] .

(83) أخرجه الترمذي .

تنشئ في النفس ما كانت تنشئه المعاني الحقيقية التي أنشأت تلك التقاليد أول مرة . ثم إن التقاليد – بالنسبة للمرأة – كانت قد صارت أقرب إلى الجاهلية منها إلى الإسلام .

وكانت في أوربا حركة لتحرير المرأة ، نشأت من الثورة الصناعية وصاحبتها طورا بعد طور ، ابتداء من اضطرار المرأة إلى العمل في المصانع في المدينة بعد أن هجرها عائلها إلى المدينة وتركها في الريف بلا عائل ، عرضة لأن تموت جوعا ، واستغلال أصحاب المصانع لذلك الوضع وتشغيل النساء بنصف أجر الرجل مع أنهن يعملن نفس العمل ، ونفس العدد من الساعات ، فصارت لها " قضية " هي قضية " المساواة مع الرجل في الأجر " ثم تطورت إلى " المساواة مع الرجل في حق التعليم " ثم " المساواة مع الرجل في حق العمل " ثم " المساواة مع الرجل في حق الوظائف العامة " ... وفي الأخير " المساواة مع الرجل في حق الفساد " [84] !!

وتبنت حركة التنوير قضية تحرير المرأة المسلمة .. على النسق الأوربي [85] !

وواضح أن القضية في أوربا قد أخذت مراحل متتابعة نشأت من ظروف محلية واقعية ، جعلت وصولها إلى شكلها الراهن يبدو منطقيا مع تلك الظروف (بصرف النظر عن النوايا الحقيقية التي كان شياطين اليهود يدفعون إليها القضية دفعا متواصلا لأمر يراد !) .

فلو كان في أوربا تشريع سماوي – كالإسلام – يوجب على الرجل كفالة المرأة في جميع أحوالها ، بنتا وزوجة وأما ، ويعفيها من العمل بنفسها ، لتتفرغ لما هو أعلى وأهم وأخطر ، وهو تنشئة الأجيال وبناء المجتمع على أسس صالحة ، لما وُجدت المرأة التي تتعرض للموت جوعا في الريف ، وتُضطر إلى الهجرة إلى المدينة للعمل من أجل القوت ..

ولو كان عند الرأسمالية الأوربية ضمير ، ما استغلت وضع المرأة التي اضطرت للعمل ، فأعطتها نصف أجر الرجل وهي تقوم بنفس العمل الذي يقوم به ، وما كانت لتوجد عندئذ البذرة الأولى التي أنشأت قضية المرأة على النحو الذي نشأت به ، وتطورت فيما بعد إلى حق المساواة مع الرجل في كل شيء !

ولو كان الرجل الأوربي لم يفسد (أو لم يُفْسَدْ) لما شملت قضية " المساواة مع الرجل " حق الفساد ، الذي كان الرجل قد " ناله ! " منذ الثورة الفرنسية ، وتابعته المرأة فطالبت به كحق مشروع !!

---

[84] اقرأ القصة إن شئت في فصل " دور اليهود في إفساد أوربا " من كتاب " مذاهب فكرية معاصرة " .

[85] واقرأ قصة تحرير المرأة المسلمة على النسق الأوربي – إن شئت – في فصل " قضية تحرير المرأة " من كتاب " واقعنا المعاصر " .

وليس معنى ذلك أن أحداث الثورة الصناعية هي التي أوقعت الظلم على المرأة الأوربية ، وأنها كانت قبل ذلك في وضع إنساني طيب .. فقد كان وضعها سيئا من قبل بسبب نظـرة المسيحية المحرَّفة إليها على أنها أحبولة الشيطان التي يجب أن تحقّر وتهان وتعامل بالزراية والبغض والعسف . وكان الفلاسفة الأوربيون في القرن السابع عشر يتساءلون : هل للمـرأة روح أم ليس لها روح ؟ وإن كان لها روح فهل هي روح حيوانية أم روح إنسانية ؟ وإن كان لها روح إنسانية فهل هي من نفس روح الرجل أم من طبقة أدنى ؟!

ولكنا نقصد أن أحداث الثورة الصناعية في أوربا هي التي اضطرت المرأة للعمل فـي خارج البيت ، وتبع ذلك الاختلاط ، والمفاسد الخلقية التي ترتبت عليه ، ووصول الأمر إلـى الأوضاع الراهنة التي صارت الفاحشة فيها أصلا معترفا به ، بل صارت هي الأصل الـذي يُنْشَّأ عليه الأولاد والبنات وتحوطه الأنظمة الدولية بالرعاية !! ولم يكن هذا كله شرطا حتميا لتحرير المرأة ، إنما هكذا سارت قضية التحرير هناك ، بسبب الظروف الخاصة التي أحدثتها الثورة الصناعية .

ولكن التنويريين لم يلقوا بالا إلى شيء من هذا كله ..

لقد كانت القضية عندهم أن المرأة المسلمة مظلومة ، وأنه يجب رفع الظلم عنها ، وأن الوسيلة يجب أن تكون هي ذات الوسيلة التي أدت إلى تحرير المرأة الأوربية !

وحقيقة إن بعض الصور كانت متشابهة ما بين وضع المرأة المـسلمة فـي المجتمـع الإسلامي المبتعد عن روح الإسلام ووضع المرأة الأوربية من حيث تعيير المرأة بأن مهمتها أن تحمل وتلد وتقوم بشئون المنزل ولا زيادة ، ووضعها في موضع الخادم للرجل على هـذا الأساس .. ولكن كانت هناك مع ذلك فروق جوهرية في أمور أخرى ، هي التي شكّلت وضع المرأة الأوربية على النحو الذي صارت إليه دون غيره من الأوضاع ، التي كان يمكـن أن ترد للمرأة كيانها الإنساني المسلوب ، دون أن تفقدها أنوثتها ، ودون أن تبتذلها على الصورة التي جعلتها ملهاة للرجل في المرقص والمسرح والسينما والمتجر والمصنع والطريق ..

فالمرأة المسلمة – رغم كل السوء الذي كانت فيه – لم تكن حَرِيَّةً أن تضطر للعمل لكي تأكل .. لا بثورة صناعية ولا بأي سبب آخر .. فكفالة الرجل لها مقررة في شرع الله ، ولـم ينكل الرجل المسلم عن كفالتها قط ، على الرغم من تفلت المجتمع التدريجي من كثيـر مـن تكاليف الإسلام . فقد كانت المسألة مرتبطة عنده بقضية العِـرْض ، وهـي قـضية شـديدة الحساسية عنده ، حتى لو تفلت في أمور أخرى .

ولم تكن المرأة المسلمة – حتى إن اضطرت للعمل خارج البيت (وهو احتمال ضئيل جدا لو بقي المجتمع المسلم بعيدا عن الغزو الأجنبي) – لم تكن لتتعرض لما تعرضت له المرأة الأوربية العاملة ، من العمل بنصف الأجر ، واضطرارها لبيع عرضها من أجل لقمة الخبز كما حدث للعاملات في مصانع " الثورة " الصناعية في أوربا ، وكان بداية لإفساد المجتمع كله ..

وأمور كثيرة أخرى لم تكن حريَّة أن تقع في المجتمع الإسلامي ..

ولكن القضية عند التنويريين كانت كما وصفها طه حسين بدقة وصراحة و " إخلاص ! " ، " هي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها **وشرها** ، حلوها **ومرها** ، وما يحب منها **وما يكره** ، وما يحمد منها **وما يعاب** " ! .

ولكن تبقى مشكلة بالنسبة لتحديد نقطة الانطلاق ..

لقد تطورت قضية تحرير المرأة الأوربية من نقطة مركزية ، هي العمل في المصانع بنصف أجر الرجل ، والمطالبة – ابتداء – بالمساواة مع الرجل في الأجر .. ثم تتابعت الخطوات .. فإن الرجل هناك لم يستجب لصراخها من أجل المساواة في الأجر ، فقيل لها : لأنك جاهلة يستخف الرجل بحقوقك ، فلا بد أن تتعلمي . فطالبت – أو طولب لها – بالمساواة مع الرجل في حق التعليم ؛ ولما لم تحل المشكلة – رغم التعليم – قيل لها لا بد أن توصلي صوتك لمنبع التشريع ، وهو البرلمان ، فطالبت – أو طولب لها – بالمساواة مع الرجل في الحقوق السياسية ، وفي وظائف الدولة العليا .. وفي أثناء ذلك كله كانت القضية تَزْحَفُ أو تُزّحَّفُ – نحو هدف نهائي مرسوم من قبل لدى المخططين ، هو أن تنال المرأة " حق الفساد " مثلها مثل الرجل سواء !

أما المرأة المسلمة التي لا تعمل خارج البيت ، لا بأجر ولا بنصف أجر ، فكيف تُنْشَأ لها قضية تمر بذات المراحل على ذات النسق الأوربي ، ليتحقق ما وصفه طه حسين ، وما قاله من قبل قاسم أمين : إن المرأة المسلمة لا بد أن تصنع ما صنعته " أختها الأوربية " ، لكي تنال حريتها ؟

لا بد من افتعال سبب آخر – وإن يكن " صناعة محلية " – تدخل به المرأة المسلمة في " المسار " الذي سلكته " أختها الأوربية " من قبل ..

ووقع الاختيار على الحجاب !

الحجاب هو سبب كل البلايا التي أصابت المرأة المسلمة ، ولا بد من خلع الحجاب من أجل تحرير المرأة !!

ولا تسل عن المنطق في القضية .. فالمنطق مجرد أداة ، إن خَدَمَتْنَا فنعما هي ! وإن لم تخدمنا فلنتخذ أداة أخرى ، ولا حرج علينا .. فالغاية تبرر الوسيلة .. والغاية أن نكون كالأوربيين !

القضية في أصلها هي تحرير المرأة من الظلم الذي أوقعه عليها الرجل (أي المجتمع الي يسيطر الرجل عليه) ولذلك فهي معركة مع الرجل ابتداء .. موجهة ضده ، لاستخلاص الحقوق التي هضمها ، واحدا إثر الآخر ، ولا يتم النصر فيها إلا بزحزحة الرجل عن عنجهيته في معركة تلو معركة ، حتى يستسلم أخيرا ، ويقرّ للمرأة بكل ما تريد !

وبصرف النظر عن كون " المساواة التامة في كل شيء " التي وُصِّلَتْ إليها قضية المرأة الأوربية ، سليمة أو فاسدة ، نافعة أو مضرة ، محققة لفطرة المرأة أو غير محققة .. فقد كانت القضية – من حيث الشكل – منطقية مع أوضاع أوربا ، فالظلم الواقع على المرأة هناك هو فعلا من صنع الرجل (أي المجتمع الذي يسيطر الرجل عليه) ، وكان لا بد من المواجهة مع الرجل ، لكي يخضع – أو يُخْضَع – لمطالب المرأة ..

أما الحجاب .. فما علاقة الرجل به ؟ ومن الذي فرضه على المرأة المسلمة ؟!

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها ، تمتدح نساء الأنصار : " لما نزلت آية الحجاب قامت كل واحدة إلى ثوبها فاعتجرت به .. " .

" لما نزلت آية الحجاب .. "

الحجاب إذن من عند الله . وليس الرجل هو الذي فرضه لحسابه الخاص ! إنما فرضه الله لحساب الرجل والمرأة كليهما ، ولحساب الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم ، والقيم اللائقة " بالإنسان " ليقوم بالخلافة الراشدة في الأرض ، محافظا على طاقته أن تتبدد – أو يتبدد جزء منها – في الشهوات ، التي أثبتت تجربة التاريخ أنها تؤدي – دائما – إلى انهيار المجتمع الذي تتفشى فيه .

وحقيقة إن الظلم وقع على المرأة المسلمة وهي متحجبة .. ولكن مرة أخرى ما علاقة الظلم بالحجاب ، وما علاقة الحجاب بالظلم ؟!

كان يمكن أن يكون هناك شيء من المنطق في القضية لو أن الظلم وقع على المرأة في اللحظة التي فرض الله عليها الحجاب .. فتكون العلاقة بين الحجاب وبين الظلم هي علاقة

السبب بالنتيجة ! ولكن كيف يكون الأمر إذا كان تحرير المرأة المسلمة قد تم في ذات الوقت الذي فرضه الله فيه عليها الحجاب ؟! وكيف يكون الأمر إذا كانت المرأة المسلمة المتحررة – التي حررها الإسلام ، وأعطاها كيان الإنسان وحقوق الإنسان – قد قامت بنشاطها كله وهي ملتزمة بالحجاب ؟!

وأي نشاط ؟!

إنه المشاركة الكاملة في بناء المجتمع الجديد ، الذي أنشأه الإسلام .. خير مجتمع في التاريخ :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (86) .

لم يكن شعور المرأة المسلمة – التي حررها الإسلام – أنها شيء هامشي في المجتمع ، بل ركن أصيل فيه ، تشارك باعتناقها الدين الجديد ، وتخلّقها بأخلاقه ، والتزامها بتوجيهاته ، في عملية البناء ، لبنة حية ، لها وعيها وإرادتها وإيجابيتها . وتشارك في المحنة التي يتعرض لها المؤمنون في مبدأ الدعوة بالصبر الجميل الناشئ من عزة التعرف على الحق بعد الضلال ، والتمسك به في وجه جميع الأهوال ، ويكفي أن يكون أول شهيد في الإسلام امرأة ، عذبت من أجل دينها حتى استشهدت وهي لا تفرط في عقيدتها ، وتضرب مثلا رائعا لا للنساء المؤمنات فقط ، بل للرجال أيضا ، ولكل مجتمع مسلم في التاريخ !

ولأمر ما – لحكمةٍ ما – اختار الله سبحانه وتعالى مثلا للذين آمناو امرأة فرعون ومريم ابنة عمران :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) (87) .

ليقول تعالى للناس إن المرأة المؤمنة تمثل " الذين آمنوا " كما يمثلهم الرجل المؤمن سواء بسواء ، بل إنها – بعملها في تربية الأجيال المؤمنة – جديرة بكل تكريم ، وقمة التكريم تأتي في كتاب الله ، الذي أنزله لهداية البشرية .

---

(86) سورة آل عمران [110] .

(87) سورة التحريم [11 – 12] .

وهذا بالإضافة إلى ما قامت به المرأة المسلمة من المشاركة في الجهاد ، سواء بتضميد الجرحى والعناية بهم ، أو بالقتال ذاته وإن لم يكن مفروضا عليها .

كلا ! لقد كانت المرأة المسلمة في قمة عليائها وكرامتها وعزتها وشعورها بإنسانيتها وشعورها بدورها الفعال في بناء المجتمع ، وهي ملتزمة بالحجاب ، بل مسارعة إليه – عبادةً لله – كما وصفت عائشة رضي الله عنها نساء الأنصار .

فأي علاقة بين الحجاب وبين ما وقع على المرأة المسلمة من الظلم والهوان ؟!

وقع عليها الظلم وهي ملتزمة بالحجاب .. نعم ! ولكن ما علاقة هذا بذاك ؟!

لو أن إنسانا كان يلبس ثوبا أبيض ناصعا نظيفا وكان في صحة وعافية ، ثم أصابه مرض أقعده عن الحركة ، وطال به المرض .. كم يكون هذا الإنسان مضحكا لو قال في نفسه : لقد مرضت بسبب هذا الثوب ! فلأخلعه لكي أتحرر من المرض ؟! وكم تكون " عقلانيته " ناقصة وهو يصنع هذا الصنيع ؟ بل كم يكون ناقص الأهلية لو أنه قال : إن فلانا من الناس لم يبرأ من المرض إلا حين خلع ثوبه وخرج إلى الشارع نصف عريان ؟!! فلأفعل مثله ولأنتظر الشفاء !!

إن الظلم قد وقع على المرأة المسلمة في المجتمع المسلم لأنه تفلت من تعاليم الإسلام ، لا لأنه كان ملتزما بتلك التعاليم ! وحيثما تفلت الناس من تعاليم دينهم وقع الظلم ، سواء كان ظلما سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو فكريا ، أو من أي نوع وفي أي اتجاه . فقد أنزل الله هذا الدين " ليقوم الناس بالقسط " .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) [88] .

فإذا لم يلتزم الناس بالكتاب ، واختل في يدهم الميزان ، فقد ارتفع عنهم القسط ، وحل بهم الظلم حتى يعودوا فيتمسكوا بالكتاب ليعتدل في يدهم الميزان .

وظلم المرأة المسلمة في المجتمع المسلم كان كله بسبب عدم التزام الناس بتعاليم الإسلام ، ولم يكن علاجه أن يزيد المجتمع بعدا عن دين الله بخلع حجاب المرأة المسلمة ، ولكن كان علاجه أن يقوم عالم رباني مؤمن ، يدعو إلى إصلاح المجتمع بإعادته إلى الالتزام الجاد بتعاليم الإسلام ، فيرتفع الرجل عن هبوطه الذي هبط إليه ، وتخرج المرأة مما غلفها به الرجل الظالم من الجهل والتأخر والخرافة وضيق الأفق وزراية الوضع وضآلة الكيان ، لتعود

[88] سورة الحديد [25] .

" إنسانة " كما خلقها الله ، مشاركة في بناء المجتمع كما أرادها الإسلام .. وتكون في كل ذلك محجبة كما أمرها الله ، متطهرة من دنس الجاهلية وتبرجها :

(وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) [89] .

لم يكن للتنويريين عذر في ربط تحرير المرأة بخلع الحجاب ، أكثر من عذر ذلك المريض الذي ضربنا به المثل ، الذي خلع ثوبه وخرج إلى الشارع نصف عريان ليشتفي مما ألم به من الأمراض !

والرد على دعاوى التنويريين في ارتباط التحرير بخلع الحجاب ، وحتمية خلع الحجاب من أجل التحرير ، هو ما صنعته الصحوة الإسلامية فيما بعد ، من تخريج نساء مؤمنات ، يعملن طبيبات ومهندسات ، وعاملات ومعلمات ، وفي كل مجالات النشاط ، وهن محجبات ملتزمات ! لا يمنعهن الحجاب من النشاط ، ولا يمنعهن النشاط من الحجاب !

بل أبلغ الرد يأتي من المرأة الغربية التي دخلت الإسلام ، وهي في أوج " تحررها " في المجتمع " المتحرر " من كل شيء ، فالْتَزَمَتْ ، وتحجبت طواعية ، عبادة لله ، واعتزازا بالحجاب ! وتحديا لكل ما يقوله أعداء الإسلام من أن الإسلام يظلم المرأة وأن الحجاب يحجّم دور المرأة المسلمة ويهمشها .

كلا ! لم يكن نزع الحجاب و الطريق إلى تحرير المرأة المسلمة . إنما كان هو الطريق إلى شيء آخر، يعلمه الشياطين من أول الطريق ، سواء علمه التنويريون أو جهلوه ، واعترفوا به أو لم يعترفوا به .

كان هو الطريق للقضاء على ما بقي من مظاهر الإسلام في المجتمع ، وشغل الأولاد والبنات بالعلاقات الدنسة والأفكار الدنسة والتصورات الهابطة . حتى إذا ولدت إسرائيل في نهاية المطاف على الأرض الإسلامية لم تجد من يقف في طريقها من شباب ملتزم ، يجاهد في سبيل الله ، ويابى التفريط في مقدسات الإسلام !

ومن الواضح أن التنويريين الأولين لم يدركوا شيئا من هذا كله .. أما المتأخرون منهم ، الذين رأوا التجربة الغربية ، ورأوا مقدار ما نشأن من الفساد في المجتمع الغربي بسبب تحرير المرأة على النسق الذي تحررت به ، فلا عذر لهم وقد قصدوا قصدا إلى اتباع أوربا " فيما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب " !

* * *

---

[89] سورة الأحزاب [33] .

قضية حرية الفكر :

في الفترة الأخيرة من حياة الأمة الإسلامية كان فكر الأمة قد تجمد في قوالب معينة ، يدور في داخلها ولا يتعداها ، ويكرر نفسه في تقليد لا أصالة فيه ، وأصبح " العلم " استظهاراً لما سبق به الأولون ، مع فارق واضح بين المبدع الذي أبدع الفكر أول مرة ، والمردد الذي يردده مختصرا أو محشّيا أو شارحا أو ناقلاً . فالأول عنده الموهبة التي مكنته من الإبداع ، والثاني عاجز عن إحداث أي جديد .

ومضت فترة من الركود لم تحس الأمة فيها بالحاجة إلى فكر جديد ! فما عندها يكفيها ، سواء ما كان قد فكر فيه العلماء لمواجهة حاجات المجتمع في وقتهم ، أو ما تخيلوا حدوثه في يوم من الأيام فقالوا : أرأيت لو حدث كذا ! فلما حدث ما تخيلوه وجد الناس أجوبة جاهزة تغطي كل احتياجاتهم ، فأخلدوا إلى تراثهم ، ووقفوا عنده ، وجمدوا عليه ، ورأوا ألاّ ضرورة للاجتهاد ، بل نظروا إلى الاجتهاد على أنه بدعة مرفوضة ، بل شر مستطير !

ثم زحف التغيير على العالم الإسلامي زحفا عنيفا مع الموجة الصليبية الزاحفة ، التي تحمل – بالنسبة للعالم الإسلامي – جديدا في كل شيء .. جديدا في العلم ، جديدا في أدوات الحرب ، جديدا في عمارة الأرض ، جديدا في أحوال المرأة .. وجديدا في عالم الفكر ..

وكان أمراً طبيعيا أن يحدث الصدام .. وكان متوقعا كذلك أن ينهزم الجمود أمام الحركة الموارة ، وينهزم أمام المدّ الجارف .

ورأى المنهزمون – في رؤيتهم الانهزامية – أن الذي انهزم هو " الدين " ! وأن الذي انتصر هو " الفكر الحر " ! وأن الدين جدير أن ينهزم ، بينما الفكر الحر جدير بالانتصار !

ثم قالوا – أو قيل لهم – إنه هكذا كان حال أوربا في عصورها الوسطى المظلمة ، أيام أن كان الدين هو المسيطر على فكر الناس ، فكان جمودا وظلاما وانغلاقا وتقليدا وانحصارا .. ثم لما حطم الناس نفوذ الكنيسة وتمردوا عليه ، " تحرروا " وانطلقوا وجددوا وأبدعوا وصارت لهم القوة والسلطان .

ومن ثم قالوا – أو قيل لهم – اصنعوا مثل ما صنعت أوربا .. حطموا الدين وأغلاله ، لكي تتحرروا وتنطلقوا ، وتجددوا وتبدعوا ، وتصير لكم القوة والسلطان !

ونسي المنهزمون – في بهرتهم – حقائق كثيرة !

نسوا ان الذي أخرج أوربا من جمودها وانغلاقها كان هو الإسلام ! فإن احتكاك أوربا بالإسلام ، سواء في الحروب الصليبية أو العلاقات التجارية أو التأثير الثقافي ، هو الذي

جعلها تشعر بما في حياتها من ظلام وجمود وتأخر ، وتسعى إلى الخروج منه ، بعد أن عاشت فيه قرونا متوالية لا تشعر بما فيه من الظلام !

ونسوا أن الجمود الذي أصاب الأمة في عهدها الأخير لم يكن سببه الإسلام ، إذ لا يمكن – بداهة – أن يكون الإسلام هو الذي بعث هذه الأمة ذات يوم ، وحثها على التفكير في كل اتجاه ، فأنتجت فكرا متفتحا صنع حضارة فائقة عاشت عدة قرون تنمو وتزدهر وتبدع في كل مجال ، ثم يكون هو ذاته السبب في الجمود والركود والقعود عن التفكير والقعود عن الإبداع ! إنما لا بد أن يكون شيء آخر هو الذي أفضى إلى ذلك الجمود ، وأن هذا الشيء حري أن يكون هو البعد عن مصدر الطاقة المشعة في هذا الدين ، وإن حافظ الناس عليه تقاليد خاوية من الروح .

ونسوا أن حال الأمة الإسلامية في جمودها يختلف في أسبابه عن حال أوربا في عصورها الوسطى المظلمة ، وإن تشابهت الصورة في بعض جوانبها . فقد كان السبب في الجمود الفكري في أوربا أن الكنيسة حجرت على العقل أن يفكر ، ورفعت ذلك الشعار الذي يقول : " آمن ولا تناقش " ! وأن السبب في موقف الكنيسة هذا كان كامنا في طبيعة الدين الذي آمنت به الكنيسة الأوربية وقامت على نشره ، وهو الدين المحرف الذي أثبتنا من قبل أقوال بعض مؤرخيهم ومفكريهم في مخالفته الصريحة لدين عيسى عليه السلام ، والذي يحوي أمورا يعجز العقل عن إدراكها ، فزعمت الكنيسة أنها " أسرار " ، وادعت أنه لا يعلم تأويل هذه الأسرار إلا آباء الكنيسة ، وهم وحدهم المفوضون بتفسيرها ، ولا يحق لأحد أن يناقشهم فيما يقولون ، وإلا اعتبر مهرطقا ، وحكم عليه بالحرمان (أي الحرمان من رحمة الله) إن لم يحكم عليه بإهدار دمه ، أو حرقه حيا في النار ..

هذا هو الذي أشاع الجمود والظلام في الفكر الأوربي في العصور الوسطى ، وليس الدين من حيث هو . فالدين الحقيقي الذي ارتضاه الله للناس ، وقال فيه سبحانه : (**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً**) (90) بسيط غاية البساطة ، واضح غاية الوضوح : إله واحد لا شريك له ، الكل مخلوقاته ، والكل عبيده ، وهو المتفرد بالألوهية وحده . ومن ثم لم يكن محتاجا إلى الحجر على العقول ليتقبله الناس بلا نقاش ، بل دعا الناس إلى التفكير ، بل إلى إمعان التفكير ، بل ندد بالذين لا يفكرون ، ولا يعقلون ، ولا يتذكرون ، ولا يتدبرون ، واعتبرهم معطلين لقواهم العقلية التي وهبها الله لهم لتعمل لا لتكف عن العمل :

---

(90) سورة المائدة [3] .

(.. لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [91] .

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [92] .

ومن ثم فإنه لما تجمد الفكر عند المسلمين لم يكن الدين هو سبب الجمود ، بل كان السبب هو البعد عن حقيقة الدين ، وإن ظل الناس متمسكين بقشور ، أو بتقاليد يحسبونها هي حقيقة الدين !

* * *

كذلك فإن الحل الأوربي للقضية لم يكن ليحل قضية المسلمين ، ولا ينبغي لهم أن يتخذوه ، لأن طريقهم غير طريقهم ، وظروفهم غير ظروفهم ، ودينهم غير دينهم !

فالحل الأوربي أولا لم يكن حلا سليما حتى لمشكلتهم الخاصة ، فهم بدلا من تصحيح الدين نبذوا الدين كله وخاصموه ! وهذا الحل الأعوج هو الذي أدى إلى ما نراه اليوم في عالم الغرب من انتشار الأمراض النفسية والعصبية ، والخمر والمخدرات والجريمة ، والانحلال الخلقي البالغ حد البشاعة ، والشذوذ ، وزنا المحارم ، وغيره من الموبقات التي تشمئز منها كل فطرة سليمة .. والتي تؤذن بانهيار تلك المجتمعات حسب سنة الله .

ثم إنهم لم يكتفوا بنبذ الدين ، بل هاجموه بضراوة ، انتقاما من قرون الظلام التي كبلهم فيها دين الكنيسة ، ومنعهم من الانطلاق والبناء والتعمير .. وكان جزءا من هجومهم عليه توجيه النقد إلى النص الديني ذاته ، لتوهينه ، أو بيان عوجه وضعفه ، أو نفي حجيته ، أو تبرير عدم أخذه مأخذ الجد ..

وقال التنويريون هذا هو هو التحرر الحق ! فلنصنع نحن في ديننا ما فعلوه هم في دينهم لكي نكون متحررين مثلهم ! ولنضع النصوص المقدسة على محك النقد كما فعلوا هم بنصوصهم المقدسة !

أي سذاجة ؟! بل أي جهالة ؟!

---

[91] سورة الأعراف [179] .

[92] سورة الحج [46] .

يخطر في بالي ائما صورة رجل يعرج لأن في قدمه شوكة تؤلمه إذا ضغط عليها ، فيجيء رجل آخر سليم القدمين ، فيقول : إنني أحب أن أعرج مثل هذا الرجل ، لأن عَرَجَتَه تعجبني !!

إن النص الذي كان مقدسا عندهم ، ظهر لهم – حين أعملوا عقولهم – أنه من أقوال البشر وليس من كلام الله . فزادهم ذلك حقداً على كنيستهم التي كانت تستذلهم وتحجر على عقولهم ، بنصوص تزعم أنها مقدسة وهي غير مقدسة ، وتزعم أنها من عند الله وهي ليست من عند الله ، وتزعم أنها وحدها هي الحق ، بينما الزيف فيها أكثر من الحق :

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [93] .

ولم يجعلهم ذلك يزدادون حقدا على الكنيسة ورجالها فحسب ، بل دفعهم الغيظ والحنق أن ينبذوا دينهم كله ، ما كان فيه من حق وما كان فيه من باطل [94] ، ويستبدلون بالدين العقل ، على أنه الأداة التي لا تخطئ ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأن العقل هو الذي يجب أن يكون محكّما في كل شيء ، وأول شيء يحكّم فيه هو الدين ! ولا يحكّم فيه ليقرّه ، ولكن ليثبت زيفه وعدم معقوليته !!

ولتقل أوربا في دينها ما تشاء ! ولكن ما بال التنويريين المسلمين ؟!

إن النص الذي أرادوا وضعه على محك النقد ليس كذلك النص الذي تبين زيفه .. إنه النص المحفوظ بحفظ الله ، الثابت المتواتر ، الذي لم يتغير منه حرف واحد خلال القرون :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [95] .

فهل يستويان مثلا ؟!

وإن النص الذي أرادوا وضعه على محك النقد ليزيفوه ، أو يوهّنوه ، أو ينفوا حجيته ، أو يبرروا الانصراف عنه وعدم أخذه مأخذ الجد ، مفتوح للعقل منذ أربعة عشر قرنا ونيفا ، فما وجد العقل السليم سبيلا إلى تزييفه :

---

[93] سورة آل عمران [78] .

[94] يقول سبحانه وتعالى : (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) [المائدة : 14] .

[95] سورة الحجر [9] .

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) [96] .

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [97] .

وكان عند نزوله مفتوحا لمعارضة عنيفة من قريش – وغيرها من القبائل المشركة – فما استطاعوا أن يقفوا له ، أو يوقفوا تأثيره في سامعيه ، أو يأتوا بمثله ، أو يزعموا أن في طوق بشر أن يأتي بمثله .

فماذا تملك إزاءه عقلانية الغرب ، غير ما قاله المعارضون الأولون ؟

ساحر أو مجنون ! بل افتراه ! بل هو شاعر ! إنما يعلمه بشر ! إن هي إلا أساطير الأولين اكتتبها ! إن تتبعون إلا رجلا مسحورا !!

ولكن مشركي الأمس غُلبوا على أمرهم وانقلبوا صاغرين ، وباءوا بالخزي والخذلان فصمتوا ، أما تنويريو اليوم فقد وجدوا " خواجات " – من المستشرقين – يبسطون ألسنتهم في الإسلام وفي كتاب الله ، فنقلوا عنهم أفكارهم ، وظنوا أنهم قد أتوا بما لم يأت به الأولون ! ولو تدبروا – بعقولهم – ما يقوله هؤلاء وهؤلاء لأدركوا ما فيه من أباطيل .. ولكنها شهوة التقليد ، مضافا إليها إمعية الشخصية ، وفقدان الموقف الذاتي وأصالة التفكير [98] .

* * *

وحين بدأت أوربا تتمرد على دينها وعلى كنيستها ، كان الشعور الشعبي – أو الجماهيري – في مبدأ الأمر مع الكنيسة ، بتأثير النزعة الدينية الفطرية عند الناس ، التي ترى في الدين شيئا مقدسا لا يجوز مهاجمته – في ذاته – ولا التمرد عليه .. فسمت الكنيسة الخارجين عليها ملاحدة ومهرطقين ، وسموا هم أنفسهم " أحرار الفكر " [99] ! وكان موقف الجماهير من " أحرار الفكر " هو المعارضة والرفض والاستنكار . فأصبحت لهم قضية .. قضية السماح " للآخر " أن يعبر عن رأيه ، ولو كان مخالفا لرأي المجموع .

وتدخلت عوامل كثيرة في تقرير هذا " الحق " .

---

(96) سورة النساء [82] .

(97) سورة محمد [24] .

(98) كان كتاب طه حسين " في الشعر الجاهلي " مجرد ترديد لأفكار المستشرق مرجوليوث ، وكتاب علي عبد الرازق " الإسلام وأصول الحكم " ترديدا لأقوال عدد لا يحصى من المستشرقين ، وكانت مسرحية " أولاد حارتنا " لنجيب محفوظ – التي نال عليها جائزة نوبل – ترديدا لفكرة موت الإله التي أطلقها شوبنهور .. وغيرهم وغيرهم كثيرون !

(99) كلمة المفكر الحر Free Thinker في المعاجم الأوربية معناها الملحد !

المعارضة المتنامية للكنيسة .. الثورة الفرنسية .. الديمقراطية .. وبصرف النظر عن دور الماسونية في ذلك كله ، لتحقيق أهدافها الخاصة من وراء الأنظمة والتنظيمات ، فإننا سنفترض أن الأمور سارت سيرا طبيعيا لا دخل فيه لأحد من شياطين الأرض .

لقد كانت القضية في أوربا واضحة المعالم ، مفهومة الأدوار ، منطقية التسلسل .

كانت الكنيسة في الموقف الخاطئ ، سواء بعقيدتها المحرفة ، وحجرها على العقل لمنع الناس من كشف ما في عقيدتها من تحريف ، أو بطغيانها في جميع المجالات بما أشرنا إليه من قبل ، من طغيان روحي ، وطغيان مالي ، وطغيان سياسي ، وطغيان علمي ، أو بما وقع من الفساد بين رجال الدين ، أو بفضائح الأديرة ، أو بمهزلة صكوك الغفران ، أو بمحاكم التفتيش ، أو بوقوف الكنيسة ضد حركات الإصلاح التي تطالب برفع الظلم السياسي والاجتماعي عن كاهل الناس [100] . وكان " أحرار الفكر " أقرب إلى الصواب ، في معارضتهم للكنيسة ومقولاتها على الأقل ، وإن لم يكونوا على صواب في محاربة الدين كله من حيث المبدأ ، والمناداة باستخدام العقل بديلا من الدين ، وقد منح الله الناس العقل ليعرفوه به ، لا لينكروه ويتمردوا عليه !

وكانت المطالبة بحق " الآخر " في إبداء رأيه ، ولو كان مخالفا للمجموع ، تستند في الحقيقة إلى ذلك الواقع ، وهو أن المجموع – المتبع للكنيسة هو المخطئ ، وهو الذي يجب أن يستمع إلى " الآخر " ليصحح فكره . وكان منع هذا " الآخر " من إبداء رأيه معناه الاستمرار في الخطأ ، ورفض الاستماع إلى حركة التصحيح .

وأخيرا – بعد جهاد طويل – تقرر عندهم هذا الحق ، وصار جزءا من ديمقراطيتهم ، لا في السياسة وحدها ، ولكن في الفكر من حيث هو فكر ، وفي السلوك من حيث هو سلوك .

وبصرف النظر مرة أخرى عن دور الماسونية العالمية في توصيل القضية إلى هذه الصورة ، التي يختلط فيها الحابل بالنابل ، والحق بالباطل ، تحقيقا لأهداف الرأسمالية اليهودية في حرية استغلال رأس المال بجميع الوسائل من أجل الحصول على أكبر قدر من الربح ، تحت شعار : دعه يفعل (ما يشاء) ، دعه يمر (من حيث يشاء) Laissez Faire Laissez Passer , الذي رفعته الثورة الفرنسية .

بصرف النظر عن ذلك ، فقد كان الموقف منطقيا حين يكون كل من القولين ، وكل من وجهتي النظر ، بشريا بحتا ، أي فكر بشر مقابل فكر بشر ، وقول بشر مقابل قول بشر .

---

[100] اقرأ إن شئت " دور الكنيسة في إفساد الدين " من كتاب " مذاهب فكرية معاصرة " .

ولكن كيف إذا كان الأمر قول بشر مقابل قول الله ، ووجهة نظر بشرية إزء أمر رباني ؟!

ماذا يقول التنويريون في هذا المنكر الذي لا يوجد منكر أكبر منه ؟

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً) (101) .

إن من حق أي بشر – ابتداء – أن يبدي رأيه حين يكون المعروض أمامه رأياً بشريًّا . وليس من حق بشر أن يقول من عند نفسه : أنا وحدي على صواب ، ومن خالفني فهو مخطئ . وكان علماؤنا يقولون – بتواضع العلم الحق – قولنا صواب يحتمل الخطأ ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب .

ولكن حين يكون المعروض أمراً ربانيا منزلا في الكتاب أو موحىً به في السنة ، فمنذا الذي يحق له أن يقول أنا على صواب وما يقوله الله خطأ ؟! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

من الذي يبلغ به التبجح أن يدعي أنه أعلم من الله ، وأحكم من الله ، وأحق أن يتبع من الله ؟

إن الله سبحانه وتعالى جعل الحكم لنفسه في الأمور كلها على إطلاقها ، سواء في الكون المادي أو في حياة البشر :

(إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) (102) .

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) (103) .

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (104) .

وجعل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر – أمر حاكميته سبحانه في الأمور كلها على إطلاقها – مبنيا على حقيقتين ، الأولى أن الله هو الخالق ، والثانية أن الله هو العليم الحكيم :

(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) (105) .

(قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (106) .

---

(101) سورة مريم [90] .

(102) سورة يوسف [40] .

(103) سورة الرعد [41] .

(104) سورة القصص [88] .

(105) سورة الأعراف [54] .

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) [107] .

فمنذا الذي يبلغ به التبجح أن يزعم أنه خالق ، فضلا عن أن يكون هـو " الخـالق " ؟ ومنذا الذي يبلغ به التبجح أن يزعم أن علمه أكثر إحاطة من علم الله ، وحكمته أعمـق مـن حكمة الله ؟

وبناء على هذين الأصلين الكبيرين : أن الله هو الخلاق الرزاق ذو القوة المتـين ، وأن الله هو العليم الحكيم ، أمر الله البشر بعبادته وحده ، وطاعته فيما أمر به ، وأنه لا خيار للبشر حين يقضي الله ورسوله بأمر :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِـنْ أَمْرِهِمْ) [108] .

فماذا يقول التنويريون في هذا كله ؟!

إن " أحرار الفكر " في أوربا لما تناولوا النصوص الدينية عندهم ، وفندوها ، وأبـاحوا لأنفسهم نقدها ، كانت ركيزتهم في ذلك أنها نصوص بشرية لا قداسة لها في واقـع الأمـر ، وإنما رجال الدين هم الذين أحاطوها بالقداسة على زعم أنها من كلام الله .. وكان تفنيد تلـك النصوص أمراً محمودا بالنسبة لأقوال الكنيسة ، ولو أنهم فعلوه من مبدأ الأمر ، وكان لـديهم منهج كمنهج المحدثين – وهو من أبرع وأدق ما أنتج الفكر الإسلامي – لأراحهم من طغيان الكنيسة ، وحجرها على العقول ، ولوفروا على أنفسهم قرونا من الظلام . ولكن أحرار الفكر هؤلاء تمادوا في " تحررهم " فلم يقنعوا بتزييف الزائف من أقوال الكنيسة وإزالـة القداسـة المزعومة عنه ، بل أمعنوا في حملتهم – مدفوعين بالغل الذي كان في قلوبهم تجاه الكنيـسة ورجالها – فهاجموا الدين في ذاته ، والنص الديني على إطلاقه ولو كان صحيحا ، ونفوا عالم الغيب كله ، ونفوا الوحي والنبوة ، وكانوا في ذلك شاطحين ، لا يرتكزون على شـيء مـن الحق ، وأصبح موقفهم لا يقل سوءا عن الموقف الذي تمردوا عليه أول مرة وإن كانوا يقفون في الطرف المقابل . فإذا كانت جريمة الكنيسة أنها جعلت الدين عدوا للعقـل ، فقـد كانـت جريمة هؤلاء أنهم جعلوا العقل عدوا للدين . وكلا الموقفين انحراف لا يؤدي إلـى خيـر ، وتشطير للإنسان إلى شطرين متعاديين ، بدلا من حقيقته المتكاملة المتوازنة التـي خلقـه الله

---

[106] سورة البقرة [32] .

[107] سورة البقرة [216] .

[108] سورة الأحزاب [36] .

عليها ، والتي يؤدي بها مهمة الخلافة الراشدة في الأرض . وكانت النهاية التي انتهت إليها " حرية الفكر " هي الانسلاخ من الدين – صحيحا كان أو غير صحيح – وإزالة قداسته من النفوس ، وما ترتب على ذلك من انصراف الناس عن اليوم الآخر ، وانكبابهم على متاع الأرض ، والانغماس في الشهوات ، وما تلا ذلك من شيوع القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية والخمر والمخدرات والجريمة .

فماذا يريدون التنويريون في بلادنا على وجه التحديد ، وهم لا يملكون حتى المبرر الأول الذي برر به " أحرار الفكر " في أوربا هجومهم على الدين ؟!

* * *

الحرية السياسية :

أعلن التنويريون عن أنفسهم أنهم قائمون بمهمة ضخمة ، هي تحرير الشعوب من الاستبداد السياسي الذي عاشت في نيره عدة قرون .

وهي مهمة ضخمة بالفعل .. يستحق من يقوم بها أن يقدم له الشكر ، وأن يكتب جهاده بحروف من نور .

لقد وقع الاستبداد مبكرا في حياة الأمة ، منذ العهد الأموي ، ووقع التخلف السياسي من الأمة كذلك ، إذ نكلت عما أمرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم من تغيير المنكر ومجاهدته بالوسيلة المناسبة من وسائل الجهاد ، وإن كانت الصورة الواقعية للتاريخ الإسلامي ليست سوداء قاتمة كما يصورها المستشرقون وأشياعهم لغاية في نفوسهم ، إنما حوت الأبيض والأسود ، وحوت الظلم والمجاهدة كذلك ، وإن لم تكن بالدرجة اللازمة التي كان يجب أن تكون .

واتخذ التنويريون سبيلهم أن يقلدوا أوربا في هذا الشأن ، ككل شأن آخر ، فدعوا إلى الديمقراطية ، وأن تكون الأمة مصدر السلطات .

ونقف هنا لنسأل : هل كانوا على وعي كامل بما هم مقدمون عليه ؟ أم إنها مجرد الرغبة التي عبر عنها طه حسين ، والتي أشرنا إليها من قبل : " وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب " ؟!

ويجب أن نكون منصفين ، فنقول إن لألاء الديمقراطية كان في يوم من الأيام باهرا يخطف الأبصار ، وإن كثيرا من عيوب الديمقراطية لم يكن واضحا في مبدأ الأمر ، إنما كانت الإيجابيات فيها هي الظاهرة للعيان .

ولكن " المسلم " الحق ، الذي يرى الأمور بحس الإسلام وبصيرة الإسلام كان يجب أن تستوقفه عدة أمور ، يتنبه لها ولا يدعها تفلت من انتباهه .

فأي شيء كان وراء الدعوة إلى الحرية السياسية ، ومهاجمة الاستبداد ؟ هل كانت خالصة لله ؟ أم كانت وراءها أهداف يخطط لها مخططون ماهرون ، يقفون وراء الستار ولا يبرزون أمام الجماهير ؟!

لقد كان " الاستبداد " مقصودا به الدولة العثمانية ، وكانت " الحرية السياسية " مقصودا بها الاستقلال عن الدولة . فمن الذي كان يحرك " اللعبة " ؟ ولحساب من كان التحريك ؟!

ونقول بادئ ذي بدء إننا لا ندافع عن الاستبداد ! لا من الدولة العثمانية ولا من غيرها ! لا ندافع عن أمر جرَّمه الله سبحانه وتعالى وحرَّمه :

" يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا " (109) .

وقد كان واجب الأمة أن تقوّم حكامها العثمانيين ، وتمنعهم من الظلم ، كما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكن المتتبع لتاريخ تلك الفترة يجب أن يستوقفه أن أشد النقد الذي وجه للدولة العثمانية كان هو الذي وجه للسلطان عبد الحميد بالذات ، وأن ذلك قد بدأ بعد أن رفض السلطان عبد الحميد أن يمنح اليهود وطنا قوميا في فلسطين !

فأين كان وعي الأمة الإسلامية – والعربية بصفة خاصة ، التي لعب بها اللاعبون ليضربوا بها الدولة العثمانية – وأين كان موقع التنويريين بالذات في هذه اللعبة الضخمة الماكرة ؟!

إن الذي قاد الثورة العربية ضد الاستبداد العثماني هو لورنس ! لورنس العرب ! عضو المخابرات البريطانية الشهير ! والذي قاد الجيش العربي كان هو اللورد أللنبي ! الذي كتب في مذكراته يقول : لولا معاونة الجيش العربي ما استطعنا أن نتغلب على تركيا !

يا حسرة على العباد !

مرة أخرى نقول إننا لا ندافع عن الاستبداد ، لا من الدولة العثمانية ولا من غيرها ! وإن كان من واجب الأمة الإسلامية أن تقوّم حكامها وتردهم إلى العدل الذي أمر به الله .

---

(109) أخرجه مسلم .

ولكن الذي تم بالفعل كان شيئا آخر ، غير الذي أمر به الله ! كان الوقـوع فـي لعبـة الأعداء الذين يخططون للقضاء على الدولة العثمانية ، من أجل القضاء على الإسلام !

كانت الصيحة ضد الاستبداد كلمة حق يراد بها باطل .. ولكنها خدعت الناس في وقتها فانجرفوا معها ، وكان التنويريون على رأس المنجرفين ، بل على رأس الدعاة الذين يدعون الأمة إلى الانجراف !

هل كانوا على وعي مما هم مقدمون عليه ؟

كان تخطيط الصهيونية العالمية – بمعاونة بريطانيا وفرنسا – منذ رفض السلطان عبد الحميد عروض هرتزل لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، هو تحطيم الدولة العثمانيـة ، وتفتيت العالم العربي إلى دويلات صغيرة ضعيفة متنابزة متعادية ، تمهيـدا لإقامـة الـوطن القومي لليهود في فلسطين ، والعرب مشغولون بخلافاتهم ، والمسلمون مشغولون بمشاكلهم ، فيتم الأمر بلا مقاومة ، أو بأقل مقاومة ممكنة ، ويستتب الأمر لليهود .

وقد نفذ هذ بالفعل كما قرره مؤتمر هرتزل في سويسرا عـام 1897 م ، الـذي قـرر ضرورة إنشاء الدولة خلال خمسين عاما . وفي تلك الأعوام الخمسين تم المطلوب كله . قُسِّم العالم الإسلامي بادئ ذي بدء إلى عرب وترك ، وأشعلت " الثورة العربية الكبرى ! " التـي وضع على رأسها الشريف حسين بينما الذي غذّاها ووجهها هو لورنس ، والتـي كـان أول أعمالها " المجيدة ! " تدمير الخط الحديدي الذي أنشأه عبد الحميد ما بين أسطنبول والمدينـة المنورة ، واحتجاز آلاف من الجنود والضباط الأتراك في المنطقة العربية وتذبيحهم بدلا من إطلاقهم ليقاتلوا في ميدان المعركة ضد الحلفاء ، وتكوين جيش " عربي ! " بقيـادة اللـورد أللنبي ليقاتل الدولة العثمانية مع الحلفاء . ثم تقسيم المنطقة العربية إلى تلك الدويلات الهزيلـة الهشة ، الخاضعة للاستعمار البريطاني والفرنسي ، ووضع فلسطين بالذات تحـت الانتـداب البريطاني (وهو درجة أشد من الاستعمار) من أجل تسليمها لليهود في الوقت المتفق عليه !

كما تم في الوقت ذاته أمر آخر على أعظم جانب من الأهمية ، هو إطـلاق قـضية " تحرير المرأة " وقضية " حرية الفكر " الأولى لشغل الأولاد والبنات بعضهم ببعض ، وشـغل الأمة كلها عن روح الجد والجهاد اللازم لمواجهة المؤامرة الكبرى التي تدبر للاستيلاء علـى فلسطين ، والثانية لإبعاد الناس عن مصدر قوتهم الحقيقي ، الذي يمدهم بالعزيمة والقوة لجهاد الأعداء – وهو الإسلام والقرآن – بإزالة قداسته في النفوس ، وتوهين جـذوره ، وتـشكيك الناس في حجيته وضرورة الاستمداد منه .

فأين كان التنويريون في هذا كله ؟ في معسكر الأمة الإسلامية أم في معسكر الأعـداء الذين يخططون للقضاء على الإسلام ؟!

ثم إن " الدولة الحديثة " التي ينادَى بها ، دولة لا تحكم بالشريعة الربانية ، إنما يطالب لها " بدساتير " مجلوبة من هنا ومن هناك ، من فرنسا أو بريطانيا أو سويسرا .. أو أي جهة غير الإسلام .

فلحساب من يتم ذلك ؟ وأين مكان التنويريين في القضية ؟!

لقد كان موقفهم واضحا من أول لحظة ، فهم ضد الحكم الإسـلامي ، وضـد تحكـيم الشريعة ، سواء بدعوى أن الإسلام لا علاقة له بالحكم ، وليس له نظام حكم (انظر علي عبد الرازق) أو بدعوى أن الحكم الإسلامي حكم استبدادي يجب القضاء عليه من أجل أن تستنشق الشعوب نسيم الحرية ، وأن الشريعة الربانية لم تعد صالحة للتطبيق بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا من نزولها ، تطورت فيها الدنيا كثيرا عن الوضع الذي نزلت فيه الشريعة وكانت صالحة فيه للتطبيق !

لقد كان همّ الاستعمار الصليبي منذ وطئت أقدامه الأرض الإسلامية هو تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم ، وتحكيم القوانين الوضعية بدلا منها .. فكيف تطابقت مواقف التنويريين مع مواقف الاستعمار الصليبي ؟!

حين جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، جاءت وفـي مـشروعها تنحيـة الـشريعة الإسلامية ، و " تحرير " المرأة المسلمة ونشر الأفكار الأوربية (العلمانية) مترجمـة إلـى العربية ليقراها العرب المسلمون ويتأثروا باتجاهاتها .

فأما الهدف الأول قد أعدّ له نابليون عدته بأن تظاهر بالإسلام ، وسمّى نفـسه الـشيخ محمد ، وكان يرأس ديوان العلماء ، ويخلع عليهم الخلع السنية كالخلفاء (!) ويطلب مـنهم ترويج القوانين التي وضعها بدلا من الشريعة الإسلامية بحجة " الإصلاح " ! ولما تنبه أحـد العلماء إلى اللعبة (وهو الشيخ الشرقاوي) ورمى " الخلعة السنية " في وجه نابليون ، وقـال له : لو كنت مسلما حقا لطبقت الشريعة الإسلامية في بلدك فرنسا ، بدلا من أن تأتي إلى هنا وتنحي الشريعة وتضع بدلا منها قوانين وضعية ، غضب نابليون غضبته الشهيرة ، واعتقـل الشيخ الشرقاوي ، وأمر بضرب الأزهر بالقنابل من القلعة ، " ودخلت الخيل الأزهـر " [110]

---

[110] عنوان كتاب من أجود ما كتب عن تاريخ هذه الفترة لمحمد جلال كشك ، يشرح فيه مؤامرة نـابليون الصليبية ضد الإسلام .

واتخذه الجيش الفرنسي " اصطبلا " لخيوله ، فكان ذلك سببا في إحدى الثورات الثلاث الكبرى التي انتهت بطرد الحملة الفرنسية من مصر .

وأما الهدف الثاني – " تحرير " المرأة المسلمة – فقد استصحب نابليون معه من أجل القيام به مجموعة من النساء الساقطات كن يسرن في الطرقات حاسرات متخلعات متهتكات – كما وصفهن الجبرتي في كتابه " عجائب الآثار " [111] – فتبعتهن بعض النساء المسلمات ، وصرن يقلدنهن في خلع الحجاب والسير في الطرقات حاسرات ، ولكن ثورة الناس عليهن قطعت عليهن الطريق ، فتوقفت الحركة إلى حين !

وأما الهدف الثالث فقد جاء نابليون معه بالمطبعة العربية التي وضعها في بولاق ، لهدف مباشر هو ترجمة " الأوامر " اليومية التي يصدرها " سر عسكر " [112] مزحزحا فيها الشريعة الإسلامية بحجة " الإصلاحات " ، وهدف آخر بعيد ، لم يمهل لتحقيقه ، وإنما أفصح عنه " شاتلييه " مؤلف كتاب " الغارة على الإسلامي " [113] الذي قال فيه إن نشر الأفكار الغربية بين المسلمين كان هدفا مقصودا لهدم الإسلام :

" ولا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية في قلوب منتحليها ، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية . فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحتك الإسلام بصحف أوربا ، وتمهد السبيل لتقدم إسلامي مادي ، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها " !!

وحين جاء الاستعمار البريطاني إلى مصر (عام 1882 م) كان من أول أعماله تقليص كيان المحاكم الشرعية ، وقصرها على النظر في " الأحوال الشخصية " (الزواج والطلاق والمواريث ، وهي كل ما بقي من تطبيق الشريعة) وإنشاء محاكم أخرى تحكم في كل الشئون (المدنية والجنائية) بالقانون الوضعي ولا تحكم بالشريعة .

فماذا كان بين الاستعمار الصليبي وبين الشريعة الإسلامية يوجب هذا الاهتمام كله بتنحيتها عن الحكم ؟

---

(111) انظر كتاب عجائب الآثار للجبرتي ، الجزء الثاني صفحات : 231 ، 244 – 245 ، 251 ، 272 – 273 ، 302 ، 436 – 437 .

(112) اللقب الذي أطلق على نابليون ، ومعناه " أمير الجيش " أو " القائد العام " .

(113) ترجمة محب الدين الخطيب . انظر مقدمة الكتاب .

كان بينهم وبينها أنهم كانوا يريدون في مبدأ الأمر تنصير المسلمين (حتى يئسوا من تحقيق هذا الهدف واكتفوا بإبعاد المسلمين عن التمسك بالإسلام كما قال زويمر في مؤتمر التنصير الذي أقيم بالقاهرة عام 1906 ومؤتمر القدس عام 1935) [114] وكان تطبيق حد الردة على المرتد مانعا من تحقيق هذا الهدف .

وكانوا يريدون استغلال الأموال بالربا (في عملية الاستعمار الاقتصادي) وكان تحريم الربا في الشريعة الإسلامية مانعا من تحقيق هذا الهدف .

وكانوا يريدون نشر الفاحشة في المجتمع المسلم لإفساد أخلاقه وتوهين عراه ، وكان تحريم الزنا في الشريعة الإسلامية مانعا من تحقيق هذا الهدف .

وكانوا يريدون نشر الخمر في المجتمع المسلم ليتلهى بها عن الصحو اللازم لمقاومة الاستعمار وجهاده ، وكان تحريم الخمر في الشريعة الإسلامية مانعا من تحقيق هذا الهدف .

وكانوا يريدون قبل هذا كله إزالة الحاجز النفسي الذي يحول بين الأمة الإسلامية والذوبان في الغرب وهو الشعور بالتميز في الأحكام التي تحكم حياة الناس ، والتي تذكر الناس دائما في الصغيرة والكبيرة أنهم مسلمون ، وأن أعداءهم – الكفار – يحتلون بلادهم ولا بد من إجلائهم عنها بالجهاد المقدس .

فأين كان موقع التنويريين في هذا كله ؟ في معسكر الأمة الإسلامية أم في معسكر الأعداء ؟!

لقد كانت في الحكم العثماني مظالم .. هذه حقيقة . ولكن الطريق إلى إزالة هذه المظالم لم يكن تنحية الحكم بالشريعة ، واستبدال القوانين بها ، فقد كان الظلم واقعا من الحكام ، وليس من الإسلام كما قيل للناس لكي لا يتشبثوا بحكم الشريعة ، ويوافقوا على تنحيتها وإبدالها .

وكان هناك جمود في الفقه الإسلامي في فترة الركود . هذه حقيقة . ولكن الطريق إلى إزالة هذا الجمود لم يكن تنحية الشريعة عن الحكم ، واستبدال القوانين بها ، فإن ذلك قد جلب على الأمة من الشر أضعاف أضعاف ما كانت تشكو منه في فترة الجمود .

* * *

ودارت العجلة دورة وجاءت الدساتير .

---

(114) راجع بالنسبة للمؤتمر الأول كتاب الغارة على العالم الإسلامي (سبقت الإشارة إليه) وبالنسبة لمؤتمر القدس كتاب المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ، للشيخ محمد محمود الصواف ، الطبعة الثالثة ص 57 – 59 .

كيف غاب عن فطنة التنويريين وعقلانيتهم أنه لا يوجد نظام يعمل من تلقــاء نفــسه ، بدون جهد يبذله البشر من جانبهم لتفعيله ؟ وأنه لا بد لأي نظام – لكي يكون فاعلا في عــالم الواقع – من تربية الناس على مقتضياته ، وتدريبهم على القيام بمهامه ، وتحمل تكاليفه ؟

وحين جيء بالدساتير ، دون أن يقــوم التنويريون بإعداد الأمة لهــا ، فكيــف كانــت النتائج ؟

لقد كانت سخرية ليس لها حدود !

حين قامت الثورة المصرية عام 1919 م كان ونستون تشرشل وزيرا فــي الحكومــة البريطانية ، فسمع بأنباء الثورة فسأل من حوله : ماذا يريدون ؟ (يقصد المصريين) فقيل له : يريدون دستورا وتمثيلا نيابيا وبرلمانا فقال : " أعطوهم لعبة يتلهون بها ! Given them a toy to play with ! " .

وهكذا كانت " الديمقراطية " حقا التي جاءت بها الدساتير ! لعبة تتلهى بها الجمــاهير ، دون مردود حقيقي يخلص الناس من سطوة السلطان ! والمستعمر هو الحاكم الحقيقــي مــن وراء اللعبة ، ومن وراء الأحزاب ، ومن وراء الحكومات التي تذهب وتجيء ، كما يتحــرك الممثلون على المسرح ، مع فارق أساسي : أن الممثل يعرف أنه يمثل ، وهؤلاء يخيل إلــيهم أنهم أشخاص حقيقيون !!

ولكن الطامة الكبرى لم تكن تلك !

إنما كانت الانقلابات العسكرية ، وما صاحبها من الأهوال !

كانت شكوى العرب التي استثيروا بها على يد لورنس – والتنويريين معه – هي مــن استبداد العثمانيين ومظالمهم .. ولقد كان هناك بالفعل ما يُشتكى منه من الحكم العثماني ، وما يحتاج إلى تصحيح .

وكان البديل الأول للحكم العثماني هو الاستعمار البريطاني والفرنسي بكل ما حمل معه من المظالم ، والاستغلال ، والقهر ، وتذويب الشخصية عن طريق الغزو الفكري والتغريب ، وإشعار العرب بالدونية ، فضلا عن احتضان الأقليات التي لم يكن لها كيان ظاهر من قبل ، وتكبيرها ، والنفخ فيها ، وتسويدها على الأكثرية العربية المسلمة ، زيادة في الإذلال .

ثم كان البديل الثاني – بعد الحرب الكبرى الثانية – هو الاستعمار الجديد ، الذي اختار لقهر الشعوب وإذلالها وسيلة جديدة هي الانقلابات العسكرية ، وما تحمل من ألوان الــبطش والطغيان الذي لا مثيل له في التاريخ .

كان النظام الإداري الذي اختارته الدولة العثمانية للمحافظة على ولاياتها من التفكك والانسلاخ كما حدث للدولة العباسية من قبل ، نظاما ذكيا من ناحية ولكنه فاسد ظالم من ناحية أخرى . كانت تعين الولاة لفترات قصيرة ، لا تمكنهم من إنشاء جيوش خاصة يسعون بها إلى الاستقلال عن سلطة الدولة (وهو ما حدث في الدولة العباسية) فتظل الدولة متماسكة إداريا وسياسيا ، ولكن الوالي الذي يعرف أنه غير باق في مكانه إلا فترة قصيرة لا يلتفت إلى مصالح الناس ، ولا يهتم بإصلاح الأحوال ، إنما يكون همه جمع أكبر قدر من المال من الناس ، فيعطي الدولة ما كلفته بجمعه من الضرائب ، ويأخذ لنفسه ما شاء بالغصب والاقتدار .

وكان هذا ظلما لا شك فيه .

ولكن الناس إذا أغلقوا على أنفسهم أبواب بيوتهم ، أو كانوا في متاجرهم أو مصانعهم أو منتدياتهم فهم آمنون من بطش السلطة إذا أدوا ما عليهم من الأموال ، لا أحد يتعقبهم ليحاسبهم على ما يقولون أو يفعلون ، فضلا عن أن يحاسبهم على ما كان يمكن أن يفعلوه لو أتيحت لهم فرصة الفعل !

أما الانقلابات العسكرية فقد كانت نوعا من العسف لا شبيه له في طغيانه وجبروته وبشاعة جرائمه في الأنفس والأموال . وما ارتكب في سجونهم ومعتقلاتهم من أنواع التعذيب الوحشي أهوال تقشعر الأبدان من سماعها فضلا عن وقوعها على الذين وقعت عليهم بالفعل . وحشية يتعفف عنها الوحش ذاته .. فالوحش يفعل ما يفعل بفريسته ليأكل ، لا لينتقم ، ولا ليتلذذ بإيلام الفريسة . أما هذه الوحوش الآدمية فقد كانت تفعل ما تفعل لشهوة الانتقام ، وتتلذذ برؤية الألم الوحشي ينزل بأجساد المعذبين ، وتصل نشوتهم إلى قمتها إذا وصل التعذيب إلى الإهلاك .

ولم يكن القصد من هذا الإرهاب الوحشي إكراه المتهمين على الاعتراف بما يراد منهم الاعتراف به من الأعمال فحسب – سواء قاموا بها فعلا أو لم تكن لهم بها صلة أصلا – إنما المقصود إشاعة جو الرهبة في الناس جميعا ، حتى لا يفكر أحد ولا بينه وبين نفسه أن ينبس بكلمة واحدة ينتقد فيها الطاغية ، فضلا عن أن يقوم بعمل ضده . ومن أجل إشاعة هذا الجو من الرهبة تهاجم البيوت ليلا ، لينتزع منها من يراد انتزاعه ، بعد ترويع أهل البيت كلهم صغارا وكبارا ، رجالا ونساء ، وبعثرة ما في البيت وإتلافه بحجة البحث عن أسلحة أو منشورات ، مع الفظاظة في التعامل والغلظة في التصرفات .

فماذا كان موقف التنويريين من هذا كله ؟

إنه العار الأبدي الذي يحملونه إلى يوم القيامة ، فقد وقفوا يساندون الطاغية ويباركون طغيانه .. لأنه يذبّح لهم المسلمين ، ويزيحهم من الطريق !

وي ؟!

وأين القيم ؟ وأين المبادئ ؟ أين " حقوق الإنسان " التي ثاروا على الترك من أجلها ؟ أين حق " الآخر " في أن يعيش وأن يبدي رأيه وهو آمن ، ولو خالف رأيه رأي المجموع ؟!

كيف صار الأمر حين أصبح " الآخر " هو المسلم ؟!

كيف استبيح دمه ؟ واستبيح أمنه ؟ واستبيحت كرامته ؟ واستبيحت آدميته ؟ في الوقت الذي يستمتع فيه المجرمون واللصوص وتجار المخدرات وتجار الأعراض بالأمن والراحة ، والمال والسلطان ؟!

كيف خنس التنويريون إزاء هذا كله .. بل كيف أيّدوا وتحمسوا وصفقوا للطاغية ويده تقطر دما من دماء المسلمين ؟!

إنه الخزي الذي تسقط معه كل دعوى .. ويسقط معه كل تمويه !

حصيلة التنوير في قرنين من الزمان

لكي نحصي حصيلة التنوير خلال قرنين من الزمان في بعض بلاد العالم الإسـلامي ، وقرن على الأقل في بلاد أخرى ، علينا أن نستعرض أمراض الأمة مرة أخرى ، وننظـر : أي هذه الأمراض قد عاجلته حركة التنوير وشفت الأمة منه ، وأيها تركته بلا علاج لأنها لم تلتفت إليه ، وأيها فشلت في علاجه رغم المحاولة ، وأيها زاد سوءا نتيجة علاج خاطئ .

قلنا في الفصل الماضي إن حركة التنوير نجحت في أمرين مهمين ، الأول هو إزالـة التعلق بالخرافة ، الذي كانت الصوفية قد نشرته في الأرض الإسلامية ، في صورة كرامـات وخوارق تنسب إلى مشايخ الطرق – الأحياء منهم والأموات – وموالد و " حضرات " تنفـق فيها الجهود والأموال والأوقات ، وقعود عن السعي واتخاذ الأسباب تعلقا بقضاء الحاجات عن طريق التقرب " للأولياء " بالذبح والنذر والدعاء والصلوات . والثاني هو إزالة النظرة إلـى العلوم الكونية على أنها كفر أو حرام لأنها تأتي من عند الكفار وتشغل عن العلوم الشرعية .

وقد كانت إزالة هذين المرضين لازمة لأي نهضة حقيقية للأمة ، ولم يكن يرجى للأمة فلاح إذا ظل الأمر على ما كان عليه في هذين المجالين ، بصرف النظر عن الخلفيـة التـي كانت حركة التنوير تنطلق منها . فهي – كما قلنا – لم تسع إلى إزالة الخرافـة مـن أجـل تصحيح العقيدة بل في محاولة لإقصاء العقيدة والقضاء عليها ، فأراد الله غير ذلك ، ولم تسع إلى إدخال العلوم الكونية وإثارة الاهتمام بها لتصحيح دين الناس بحيث يشمل الدنيا والآخرة ، كما أنزله الله وطبّقه المسلمون فترة غير قصيرة فأنشئوا به حضارة فذة في التاريخ ، وإنمـا كانت محاولة من جانبهم لإقصاء التعليم الشرعي وإهماله وتحويل اهتمام الناس عنه ، فـأراد الله غير ذلك (كما سنبين في سياق الحديث) .

العبرة بالخواتيم كما يقال . وقد كانت الخواتيم في صالح الأمة ، وفي صالح الحركـة الإسلامية التي جاءت فيما بعد ، إذ وجدت أعوانا قد تخلصوا – أو تخلص كثير منهم – مـن خرافات الصوفية ، وأقبلوا على العلوم الكونية فتمرسوا بها ، وصار كثير منهم متفوقين فيها ، فساعد هذا وذاك في تقوية المد الإسلامي .

وقلنا كذلك في الفصل الماضي إن الحركة ركزت على ثلاث قـضايا رئيـسية ، هـي تحرير المرأة وحرية الفكر والحرية السياسية .. فماذا كانت الحصيلة ؟

لا شك أن وضع المرأة بصفة عامة قد تغير كثيرا عما كان عليه في السابق ، وجـدّت في الوضع إيجابيات لم تكن لتنال لو لم تقم حركة هادفة ، تهدف إلى إخراج المرأة من الظلم والظلام الذي كانت تعيش فيه .

لكن هذه الإيجابيات كان يمكن أن تكون أكثر كثيرا ، والسبيات أقل كثيرا ، لو لم تتخذ الحركة النهج الأوربي ، وتصر على أنه هو الطريق الذي لا طريق غيره .

كان من الإيجابيات ولا شك تعليم المرأة ، فلا خير في الجهل ، سواء كان الجاهل رجلا أو امرأة . ولا يتقدم مجتمع نصفه جاهل ، مغلف بالخرافة وضيق الأفق ، ولو كـان نـصفه الآخر في الذروة من العلم .

وكان من الإيجابيات تغير نظرة الرجل إلى المرأة ، وتغير نظرة المجتمع إليها كذلك . فلم تعد " شيئا " من الأشياء ، ولا كمًّا مهملا لا يحفل به أحد . بل صارت كائنا إنـسانيا لـه وجود إيجابي ، ويحتل مساحة ملموسة من ساحة الواقع .

وكان من الإيجابيات توسيع أفقها هي ، من الحيز الضيق الذي كانت تدور فيه ، إلـى أفق أرحب ، يطل على العالم كله بنسب قد تختلف من فرد إلـى فـرد حـسب اسـتعداداته واهتماماته الخاصة ، ولكنه في جميع الأحوال أوسع وأرحب وأعلى من ذلك الأفق المحـدود الذي كانت تعيش فيه من قبل : أن تحمل وتلد وتقوم بخدمة الرجل في البيت ، ثم تتـصرف بقية الطاقة في غيرة امرأة من امرأة ، أو كيد امرأة لامرأة ، أو الحسد والغيبة والنميمة وتتبع العورات وتلفيق الروايات .

ولكن السبيات كانت كثيرة كذلك ، أكثر بكثير من الحد الذي تستقيم بـه الأمـور فـي مجتمع سليم .

فأما الفساد الخلقي وتهوين أمر الفاحشة ، وتسميتها بغير اسمها تزيينا لها ، وتهوينا من أمرها في نفوس الناس ، وتشجيعها عليها بكل وسائل التشجيع ، فأمر أوضح من أن يشار إليه ، أو يجادل فيه ؛ وما يجري في وسائل الإعلام ، المقروء منها والمسموع والمنظور ، هو من البشاعة والسوء بحيث لا يملك أحد أن يدافع عنه ، أو يبرر وجوده .

ولكن السوء لم يقف عند هذا الحد ، وهو في ذاته خطير ، لأنه يأكل كيـان أيـة أمـة يتفشى فيه ، في الوقت الذي يعمل فيه أعداؤنا على تذويبنا وإفنائنا وتقليص وجودنا واستعبادنا وتسخيرنا لمصالحهم ، وخاصة العدو الصهيوني .

إن " ترجيل " المرأة في نظرنا لا يقل عن إفساد الأخلاق ، وإن لم يكن ظاهرا للعيـان كالفساد الخلقي .

إن حكمة خلق الزوجين – الذكر والأنثى – التي ما فتئ كتاب الله يذكرنا بها على أنها آية من آياته ، تزول إذا أصبح الجنسان واحدا .. سواء رجل وامرأة مسترجلة ، أو امرأة ورجل مستأنث .. كلاهما إفساد للفطرة ، وكلاهما إتلاف لبنية المجتمع ، التي أقامها خالقها – وهو اللطيف الخبير – على جنسين متكاملين – لا متماثلين – لكل منهما خصائصه ، ويجري بينهما تفاعل حي ، ينتج منه أسرة مترابطة ، ومجتمع متماسك ، وقيم وأخلاقق ، وآفاق عليا تليق " بالإنسان " الذي كرمه الله :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) [115] .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [116] .

وحين تُرَجَّل المرأة – سواء بالتعليم على مناهج الأولاد ، أو بالاختلاط على أساس " الزمالة " في مراحل التعليم المختلفة ، والجامعية بصفة خاصة ، أو الإعداد النفسي والعقلي للعمل في خارج البيت ، والنظر إلى البيت والأمومة وتربية النشء نظرة ازدراء على أنه امتهان لكرامة المرأة وحط من قدرها – حين يحدث هذا كله ، يحدث فساد كبير في المجتمع البشري ، يعاني الغرب الآن ويلاته ، سواء في تفكك الأسرة ، أو جنوح الأحداث ، أو انتشار الشذوذ ، أو الشقاء المزدوج ، شقاء الرجل " بالزميل " المشاكس داخل الأسرة ، وشقاء المرأة بالعمل في الخارج مع عبء الأسرة والأطفال ، فضلا عما أصاب الأطفال من التشرد النفسي نتيجة عدم وجود الأم المتفرغة للأمومة ، وأثر ذلك كله في ارتفاع نسبة الأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والخمر والمخدرات والجريمة .

شرورو كثيرة ما كان أغنانا عنها لو اتخذ " تحرير المرأة " مسارا آخر غير المسار الأوربي الذي أصرت عليه حركة التنوير !

* * *

أما " حرية الفكر " فقد كانت كلها هجوما على الدين ومقدساته ، بدلا من العمل على إعادة الحيوية إلى الفكر الإسلامي ، بعد الجمود الذي أصابه في فترة الركود .

وكان لهذا الأمر سلبيات كثيرة ، وخطيرة في ذات الوقت .

---

(115) سورة الإسراء [70] .

(116) سورة الروم [21] .

السلبية الأولى هي التقليد في محاربة التقليد ! فلم يكن شيء مما أنتجه التنويريون في مهاجمة الإسلام أصيلا ولا صادرا من عند التنويريين أنفسهم . فما كان من كتاباتهم ضد الدين في عمومه فهو ترجمة ركيكة لما قاله كتاب الغرب في الدين ، مع الفارق الذي أشرنا إليه آنفا ، أن هؤلاء هاجموا صورة مزيفة من الدين لم يعرفوا غيرها ، وعمموها – جهلا – على الدين كله ، بينما التنويريون يهاجمون الدين الحق ، فيقولون فيه ما قاله أولئك في بضاعتهم المزيفة ، فيرتكبون في الواقع حماقتين ، حماقة التقليد بغير بصيرة ، وحماقة وضع الكلام في غير مواضعه التي يمكن أن يصح فيها ! وما كان من كتاباتهم ضد الإسلام بالذات فهو ترديد لما يقوله المستشرقون ، حرفا بحرف ، وافتراء بافتراء ! فيرتكبون مرة أخرى حماقتين " عقلانيتين ! " : حماقة التقليد بغير بصيرة ، وحماقة أخذ الحكم على الشيء من أعداء ذلك الشيء ، الذين هم بداهة حكام غير أمناء لأنهم أعداء !

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) (117) .

(وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) (118) .

والسلبية الثانية أن توهين عرى الدين في النفوس – الذي هو الهدف الأخير " لأحرار الفكر " في كل مكان – قد أحدث شرا عظيما في المجتمع ، أعظم في الحقيقة من الشر الذي أحدثه في الغرب ذاته ؛ لفارق الدينين وفارق الظرفين !

ففي الغرب أحدث توهين الدين في نفوس الناس فسادا خلقيا ضخما في الفوضى الجنسية التي نشأت من " تحرير المرأة " على الصورة التي حررت بها هناك ، مع زوال الوازع الخلقي الذي ينشئه الدين في النفوس بتذكيرهم بالله ، وتذكيرهم بالآخرة . ولكنه أحدث في الوقت ذاته انطلاقة حيوية ضخمة في المجتمع الغربي ، لأن ذلك الدين – كما مثلته الكنيسة الأوربية – كان معوقا عن الانطلاق ، معطلا عن الحركة ، مقعدا عن النشاط في أمور الحياة الدنيا . وهكذا اختلط الخير والشر في الجهد الذي قام به " أحرار الفكر " هناك ، وإن كان الشر ظل يتمادى ، حتى ليوشك أن يدمر كل الخير في نهاية المطاف .

أما تنويريونا فقد كانت جهودهم في تحرير الفكر شرا كلها بغير خير .

ففضلا عن الفساد الخلقي الذي يصاحب دائما توهين عرى الدين في النفوس ، ولا يتخلف عنه أبدا ، فإن أمراضا كثيرة تفشت واستفحلت حين أضعف الوازع الديني ، بعضها

---

(117) سورة البقرة [120] .

(118) سورة الأحقاف [11] .

كان موجودا في نطاق ضيق فاتسع نطاقه أيما اتساع ، وبعضها ولد في الفراغ الذي تسبب فيه تحجيم الدين .

فالغش ، والتزوير في العمل ، وأداء الواجبات سدًّا للخانة دون روح حقيقية ودون حرص على الإتقان ، والخداع والالتواء في التعامل ، كانت كلها موجودة ولكن في نطاق ضيق . لأن بقية من الدين كانت تقف حائلا دون انتشارها . فلما ذهب – أو أضعف – نفوذ الدين ، لم يعد هناك حائل ، فاتسع نطاقها ، وصارت أصلا من أصول المجتمع " المتحرر ! " . لا تستطيع أن تأمن عاملا إلا إذا وقفت على رأسه حتى يكمل العمل ، ويعمل حينئذ وهو متضايق من مراقبتك له ، حانق عليك لأنك لم تمكنه من الغش والخداع الذي تعود عليه . ولا تستطيع أن تثق بوعد يعدك إياه موظف أو عامل أو صاحب صنعة حتى تداوم التردد عليه إلى أن يجد أنه لا خلاص منك إلا بأداء العمل الذي طلبته منه .

وكانت الرشوة تقع في المجتمع لكن في جو من السرية والتكتم الشديد ، لأن المرتشي يخاف والراشي يخاف ، فتظل الرشوة محدودة النطاق ، فأصبحت الرشوة – بعد زوال الحاجز الديني – أمرا علنيا ، يتعالن به الراشي والمرتشي ، بل أصبح لا يتم أمر إلا برشوة – إلا ما رحم ربك – وتذهب تطلب حقك الواضح الجلي الذي لا شبهة فيه فيقال لك : كم تدفع لتأخذ حقك ؟!

وكان أكل المال الحرام موجودا في المجتمع ، يقوم به من لا شرف له ولا احترام ، لذلك كان محدود النطاق . فأصبح هو السبيل الأكبر لكثير من الناس إلى الثراء ونيل الاحترام بين الناس ! لأن الناس صارت تحترم صاحب الثروة – وعلى قدر ثورته – بصرف النظر عن مصدر الثروة ومدى حلّها أو نظافتها .. وأصبح من " علية القوم ! " من يعمل في تجارة الأعراض أو تجارة المخدرات ويقبل عليه الناس ويوقرونه وهم يعلمون من أين أتى بالمال !

وفي وقت من الأوقات – إلى عهد غير بعيد ، ورغم كل ما كان في المجتمع من انحراف – كان الناس يقترضون ويقرضون بغير أوراق ! ويؤدي المقترض دينه وفاء بالعهد ، وخوفا من الله ، بينما المقرض لا يملك سندا ضده .. فأصبحت السندات تزور ، والأمانات تؤكل على أصحابها ، والمدين يماطل وهو قادر على رد الدين . وأصبح الشركاء يتسابقون كلٌّ في محاولة خداع شريكه ، وأكل ماله ، وإخراجه من الشركة صفر اليدين منذ أن يبدأ المشروع يؤتي أرباحه !

وكان الجار يأتمن جاره على عرضه وماله وأسراره ، ويجري على ألسنة العامة قولهم إن النبي صلى الله عليه وسلم وصى على سابع جار ! وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم : " ما

زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ! " [119] فصارت المصائب تأتي – أقرب ما تأتي – من الجار الذي لا يؤتمن على عرض ولا مال .

وأمراض أخرى كثيرة يطول شرحها نجمت أو تفشت من توهين عرى الدين في النفوس ، وخاصة على أيدي الأنظمة الطاغية التي اضطهدت الإسلام والمسلمين ، وكانت موضع الرضى والترحيب والتأييد من التنويريين .

ومن باب الإنصاف نقول إن التنويريين لم يسعوا إلى إحداث كل هذه الشرور في المجتمع ، ولكنهم يحملون مع ذلك مسئوليتهم عنها ، لأنهم لم يقدروا خطورة الجرم الذي أقدموا عليه حين عملوا على توهين عرى الدين في النفوس .

* * *

بالنسبة للحقوق السياسية تختلط السلبيات بالإيجابيات في عمل التنويريين ، وكما رأينا في أمور أخرى تزيد السلبيات على الإيجابيات حتى تمحو أثرها في النهاية !

فمن الإيجابيات تذكير الناس أن لهم حقوقا على حكامهم ، وهو أمر كانوا قد نسوه من زمن بعيد ، منذ غابت الخلافة الراشدة التي كان صاحبها يقول : " إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني " [120] ويقول : " القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له " [121] والتي يقول صاحبها " يا أيها الناس اسمعوا وأطيعوا " فيقال له لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة حتى تبين لنا من أين لك هذا البُرد الذي ائتزرت به ، فلا يغضب ، ولا يستكبر على المساءلة ، بل يجيب ويبين ، فيقال له : الآن مر ! نسمع ونطع ! [122] ثم جاء الأمويون ومَنْ بعدهم فغيروا النهج وذهبوا بما كانت تتسم به الخلافة الراشدة من عدل نموذجي ، واستبدلوا به شدة على الناس ومظالم – إلا من رحم ربك – فنسي الناس ، ونفضوا أيديهم من سياسة الحكم وتركوا الأمر للحاكم إن شاء عدل فكان الخير ، وإن شاء عسف فكان الصبر !

أثار التنويريون قضية حقوق الأمة على الحاكم ، ووجوب مراقبتها لأعماله ، ومحاسبته حين يتجاوز حدوده ..

نعم .. ولكن !

---

[119] أخرجه البخاري .

[120] هذه قولة أبي بكر رضي الله عنه ، وقوله عمر رضي الله عنه من بعده .

[121] هذه قولة أبي بكر رضي الله عنه .

[122] هذا ما حدث مع عمر رضي الله عنه .

ما كانت نيتهم صافية وهم يثيرون القضية .. ولم يكن عطفهم حقيقيا على الجماهير ! وليته كان كذلك ، إذن لتقدمت الأمة في هذا المضمار ، ولنالت حقوقها ، أو شيئا منها ، ولم تسمح لأبشع ألوان الطغيان التاريخي أن تقهرها وتستذلّها وتسلبها أمنها وكرامتها وكل حق من حقوقها !

لقد كان الدافع الذي يحركهم هو مهاجمة الحكم الإسلامي ممثلا في الدولة العثمانية . وهنا يختلط الحق بالباطل . فلو أنهم هاجموا مظالم الحكم العثماني من المنطلق الإسلامي لأدوا خدمة هائلة لهذه الأمة يكسبون بها ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . فحين ينادي الدعاة بالعودة إلى الصورة الإسلامية الصحيحة التي بدأ بها الحكم الإسلامي سيرته الأولى – ولو تعرضوا للأذى في دعوتهم ، ولو استشهد منهم في سبيل ذلك من قدر الله له أن يستشهد – فقد كانوا سيؤدون للأمة خدمتين جليلتين في آن واحد : رد حقوقها المسلوبة إليها ، والمحافظة على الدولة الإسلامية التي يعمل الأعداء بكل جهدهم لتقويض أركانها توطئة للقضاء عليها ، والقضاء على الإسلام من ورائها .

ولكنهم حين ينشئون دعوتهم على أساس أن الإسلام لا علاقة له بالحكم ، أو أن الإسلام هو منبع الظلم ، فقد كانوا عونا للأعداء في مهمتهم التي ركزوا فيها جهودهم ، وهي القضاء على الدولة الإسلامية ، تمهيدا للقضاء على الإسلام ذاته .

هذه واحدة .

والثانية أنهم حين دعوا إلى الحقوق السياسية على طريقة الديمقراطية الغربية لم يقوموا بجهد حقيقي لتهيئة الأمة للاستفادة من إيجابيات الديمقراطية [123] ، بل كانوا يعيشون في أبراجهم العاجية يحلمون ، دون أن ينزلوا إلى أرض الواقع ليمارسوا الدعوة بالفعل ، ويربُّوا الأمة على المحافظة على حقوقها . لأنهم لم يكونوا دعاة حقيقيين ، ولا مربين مخلصين ، إنما كان همهم الأول مهاجمة الدين !

أما ثالثة الأثافي فهي ما أشرنا إليه من قبل ، من الوقوف في صف الطغيان البشع الذي جيء به للقضاء على المد الإسلامي ، بوسائل بلغت من الوحشية حدا تعجز اللغة عن وصفه ، وكانوا هم يؤيدون الطاغوت ، ويجندون أقلامهم للإشادة بجرائمه ، وتضليل الأمة بالبطولات الزائفة التي يضفونها عليه .

* * *

---

(123) بصرف النظر عن سلبياتها !

أما الثلاثي الرهيب الذي توغل في جسد الأمة ومنعها من النهوض فماذا فعل فيه ؟ الفوضوية التي تكره النظام ، والعفوية التي تكره التخطيط ، وقصر النفس ، الذي يشتعل بسرعة وينطفئ بسرعة . هل فكروا في علاجه ؟ وهل يستطيعون ؟!

أما الاستطاعة فليسوا من أهلها ، وهم يعيشون في أبراجهم العاجية ، لا ينزلون إلى ساحة الواقع ، التي تحتاج إلى العرق والجهد لتغير طبائع الناس ، وتنشّئهم تنشئة جديدة ، جادة قوية فاعلة مريدة .

إن نشر الأفكار التي تدعو إلى التسيب والانحلال سهل ، واستجابة الناس لها سريعة . أما الأفكار التي تحتاج إلى بناء ، وتحتاج إلى بذل الجهد ، وإلى المثابرة والمتابعة ، فأمرها مختلف .

والذي كانت الأمة محتاجة إليه ، لم يكن حل أخلاق المجتمع ، وإطلاق الغرائز والنزوات ، وشغل الأولاد بالبنات ، والبنات بالأولاد ، وإنفاق الطاقة في السفاسف ، والجري وراء أشكال الحضارة وأزيائها دون لُبّها الحقيقي .

لقد كانت الأمة محتاجة إلى إعادة البناء ، على أسس جديدة ، قوية متينة ، لاستعادة ما فقدته من حيويتها وعزيمتها في سنوات الركود الآسن الذي انتهى بها إلى أن تكون غثاء كغثاء السيل .

ولقد كانت دعوى التنويريين أن نصبح مثل أوربا ، لنكون شركاء لها في الحضارة ما يحمد منها وما يعاب ، فإلى أي شيء وصلنا ؟

فأما ما يعاب من هذه الحضارة فقد عببنا منه عبًّا ، وصرنا بالفعل مثلهم أو أسوأ منهم ! ويكفي ما تبثه الفضائيات من ألوان الفساد .

أما ما يحمد فلم نقدر عليه لأننا مقلدون .. والمقلد لا ذاتية له ، ولا عزيمة عنده ، ولا قدرة له على بذل الجهد .

البناء الحضاري جهد يبذل .. جهد عقلي ونفسي وعصبي وجسدي ، وعلمي وأخلاقي ، وعزيمة لا تقف في وجهها الصعاب ، ومثابرة لا تقعدها العقبات .

والفكر التنويري – فكر الأبراج العاجية ، وفكر التسيب والانحلال – لا يقدر على شيء من ذلك ، لأنه يفتقد الأصالة ، ويفتقد الذاتية المستقلة ، ويفتقد العزيمة الإيجابية الفاعلة .

وهذه تجربة قرنين كاملين من الزمان في بلد مثل مصر ، وقرن من الزمان على الأقل في أي بلد إسلامي .. ماذا جنت في عالم الواقع إلا مزيدا من الضعف ، ومزيدا من التخلف ،

ومزيدا من التبعية للغرب ، ومزيدا من التيخ والشتات ، والعجز عن اتخاذ المواقف ، والعجز عن مجابهة الأحداث ؟

وفوق ذلك كله ضاعت فلسطين ...

والتنويريون مشغولون بحرب الإسلام !

المستقبل للإسلام

لا يستطيع التنويريون أن يقدموا للأمة أكثر مما قدموه خلال قرن أو قرنين من الزمان ، إلا مزيدا من الهجوم على الإسلام ، ومزيدا من الفوضى الخلقية ، ومزيدا من التبعية للغرب . وبالتالي مزيدا من الضياع .

ولا امل لهذه الأمة إلا بالرجوع إلى الإسلام . هو وحده الذي يمكن أن يبعث الأمة بعثا جديدا تسترد فيه عافيتها ، وتنطلق من جديد .

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

ومن عجيب قدر الله أن حركة التنوير ، التي بثت لتكون بديلا من الإسلام ، كانت – بما نجحت فيه وما فشلت فيه – تمهيدا جيدا لحركة إسلامية مستنيرة ، هي التي تعمل الآن في الساحة ، وتدل الدلائل كلها أنها هي المستقبل ، وهي طريق الخلاص .

إن النجاحات التي نجحت فيها حركة التنوير ، في تخليص فريق من الناس من خرافات الصوفية وأوهامها وقعودها وتواكلها وإقناع الناس بالإقبال على العلوم الكونية والاشتغال بها ، قد أمدت الحركة الإسلامية التي جاءت بقدر من الله بشباب متنور متعلم ، يعلم من سنن الله أنه لا بد من جهد يبذل للوصول إلى النتائج ، ولا بد من عزيمة صادقة ، ولا بد من اتخاذ الأسباب ، ولا بد من التسلح بالعلم ، ولا بد من الاطلاع على ما يحدث في العالم من أحداث .

كما أن إخراج المرأة من عزلتها ، وجهالتها ، ومحدودية آفاقها ، وتفاهة اهتماماتها ، قد أمد الحركة الإسلامية بنساء متعلمات واعيات ، كن أقدر على فهم الإسلام في شموله وسعة آفاقه ورفعة اهتماماته ، وأقدر على إبراز دور المرأة المسلمة في بناء المجتمع المسلم ، مع المحافظة على آداب الإسلام ونظافة الإسلام وطهر الإسلام ، متحديات دعاوي التنويريين أنه لا بد من خلع الحجاب لتأخذ المرأة مكانتها ، ولا بد من الاحتكاك بالرجل بلا خجل ولا حياء .

أما ما فشلت فيه حركة التنوير أو كان من سلبياتها ، فقد كان مددا للحركة الإسلامية من جانب آخر .

إن الهجوم المستمر على الإسلام : قيمه ومبادئه وتاريخه ورجالاته وإنجازاته ، قد أيقظ المسلمين إلى جوانب من عظمة الإسلام كانت – في فترة الركود – قد نسيت أو انطفأ بريقها

وفقدت إشعاعها . فإن هجوم المستشرقين وأشياعهم من التنويريين الذين يترجمون أفكار المستشرقين وينشرونها بأسمائهم وأسماء أصحابها الأصليين أحدثت رد فعل فيما يسمى حركة " الدفاع عن الإسلام " .

و " الدفاع عن الإسلام " لم يكن في ذاته حركة سليمة ، فقد كان دفاع المنهزم أمام الهجوم ، يحاول جهده أن يرد الطعنات ، وأن يضمد الجراح . ولكنه كان منطقيا مع حال الأمة في بدء يقظتها ، وقد تيقظت على السهام تنوشها من كل جانب ، ولكنه حوى جانبا مفيدا على أي حال ؛ هو أنه بعث المفكرين الإسلاميين ينقبون في التراث الإسلامي ليردوا على شبهات المفترين والمبطلين ، فنشروا من مزايا الإسلام ما كان منسيا أو مجهولا أو غير ملتفت إليه ، فزاد وعي الناس بحقيقة الإسلام الشاملة المتكاملة ، فكان هذا من " البيان " المطلوب دائما لهذا الدين في كل جيل من الأجيال ، من أول البعثة حتى يرث الله الأرض ومن عليها :

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (124) .

وقد انتهت موجة " الدفاع " في موعدها المقدور .. وجاءت بعدها الموجة الصحيحة ، في حركة " البيان " الذي قصد به البيان أساسا ، وليس الرد على الشبهات . ثم جاءت موجة ثالثة – في موعدها المقدور كذلك – موجة الهجوم على الحضارة الغربية وبيان عوراتها وسلبياتها ، وإزالة الغبش الذي غشى أعين الناس تجاهها ، وكشفها على حقيقتها ، في مواقفها الصليبية المعادية للإسلام ، المتحيزة للعدوان اليهودي السافر ، الطاغية المستبدة ، وريثة الإمبراطورية الرومانية في طغيانها وجبروتها وسعيها إلى استعباد الآخرين وتسخيرهم لمصالحها ، وإن ادعت أنها تحترم " الآخر " وتسمح له بحق الوجود ، وحرية التعبير عن هذا الوجود .

وكان هذا كله ردا على إحدى سلبيات حركة التنوير .

أما الفشل الذريع في علاج كثير من الأمراض ، إما بعدم الالتفات إليها أصلا ، وإما بتقديم علاج خاطئ يزيد المرض بدلا من شفائه ، فقد أيأس كثيرا من الناس من الدرب الذي سلكه التنويريون ، وأقنعهم أنهم لن يصلوا منه إلا إلى مزيد من الهوان والضعف والضياع .. فكان هذا مددا للحركة الإسلامية من جانب آخر .

والله هو الذي يقدر الأقدار وليس البشر :

---

(124) سورة النحل [44] .

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [125] .

(وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) [126] .

لقد كانت الصحوة الإسلامية ذاتها قدرا ربانيا ، جاء في موعده المقدور عند الله . وكانت هي الرد على كيد الأعداء الذي أرادوا به القضاء الأخير على الإسلام ، بإزالة الخلافة . فقد قام رجل فتح الله بصيرته بنور الإسلام ، فقال : " إن كانت الخلافة قد ضاعت ، فلماذا لا نعمل على إعادتها من جديد " [127] .

* * *

في غير هذا المكان تحدثنا عن الصحوة الإسلامية ، ما لها وما عليها ، ما نجحت فيه وما فشلت في أدائه ، وما بنا أن نعيد هنا شيئا مما قلناه هناك .

ولكنا هنا نقول إن الصحوة – بإذن الله – هي المستقبل .

إن أمامها مهامّ ضخمة ، وأمامها عقبات كثيرة . ولكنها هي الطريق .

إن بعث الأمة من جديد يحتاج إلى " عقيدة " ، وليس فقط إلى " فكر " . الفكر مطلوب ، نعم . ولا يمكن لحركة مستنيرة هادفة أن تحقق شيئا من أهدافها بغير فكر ناضج مستنير . ولكن الفكر وحده لا يكفي ، ولا يصنع شيئا وهو معلق في أبراجه العاجية لا ينزل إلى واقع الساحة . والعقيدة هي التي تفعل . هي التي تحرك . هي التي تدفع للعمل . وهذا من طبيعتها ، لأنها تعمل من داخل مركز الحركة الحقيقي وهو القلب :

" ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهي القلب " [128] .

والذي أنزله الله تعالى – اللطيف الخبير ، الذي يعلم من خلق ، ويعلم ما يصلحه وما يصلح له – هو عقيدة تشتمل على فكر ، وليس فكرا فلسفيا ونظريات .

وحين عملت هذه العقيدة على أصولها الصحيحة ، وبما تشتمل عليه من فكر صحيح ، صنعت ما يشبه المعجزات . وحين غفل عنها أهلها وأهملوها ، ذَوَوْا وانحصروا ، حتى صاروا غثاءً كغثاء السيل ..

---

[125] سورة يوسف [21] .

[126] سورة النمل [50] .

[127] هو الإمام الشهيد حسن البنا .

[128] أخرجه البخاري .

ثم جاءت الصحوة بقدر من الله ، وأخذت منطلقها الذي قدره الله ، ونجحت في مجالات ، وأخفقت في مجالات ، وتعجلت في أمور ، وفاتتها أمور .. ولكنها ما تزال في بدايتها ، وأمامها بعدُ مشوار طويل ، وأمامها أكثر من فرصة لتصحيح ما أخطأت فيه ، وتداركُ ما أخفقت فيه .. ولكن اتجاه قدر الله هو إلى تثبيتها وترشيدها وتقويمها ، وليس إلى القضاء عليها وإنهاء دورها ..

وقدر الله غيب ، ولكن له إرهاصات ..

فلو شاء قدر الله ابتداءً ألاَّ تقوم الصحوة ما قامت ، فقد كان كيد الأعداء ماكرا خبيثا عنيدا ، وكان حال الأمة مغريا للأعداء أن يضغطوا بكل قوتهم ليزهقوا روح " الرجل المريض " – كما كانوا يسمون الدولة العثمانية في آخر عهدها – ويستريحوا منه إلى نهاية الزمان ..

ولكن مولد الصحوة من ذات الحدث الذي أراد به الأعداء القضاء على الإسلام إشارة إلى اتجاه قدر الله .

ثم إن الصحوة قد فاجأت المخططين من الصليبيين والصهيونيين مفاجأة عنيفة ، فدبروا لقتلها ، وأنشئوا لذلك مجموعة من الانقلابات العسكرية في العالم الإسلامي ، تبطش بالمسلمين بطشا لا سابقة له في عنفه ووحشيته ، على أمل القضاء على الصحوة قبل أن يستفحل أمرها وتستعصي على عملية الإفناء ، فكان من قدر الله انها زادت اشتعالا ، واتسع نطاقها .

والمستقبل غيب .. ولكنا نستقرئ سنن الله ، ووعده ووعيده ، فنجد أن المستقبل للإسلام .

إن من سنن الله أن الدعوة التي يقدم لها الدم لا تموت .. وقد أسرف الأعداء في إراقة الدم ، ظنا منهم أنه يقضي على الدعوة ، فكان الدم المراق سبيلا إلى زيادة المد .

وإن من وعد الله أن يمكن للأمة حين تصحح موقفها من دينه ، وتعبده وحده دون شريك :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [129] .

وقد بدأت الأمة تعود ..

---

[129] سورة النور [55] .

وإن من وعيد الله أن يسلط على اليهود من يدمرهم إذا علوا في الأرض :

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ، إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا) (130) .

وقد عادوا .. بل إنهم لم يطغوا في تاريخهم كله كما طغوا اليوم ، ولم يصل سلطانهم قط إلى ما وصل إليه اليوم .. فماذا ينتظر إلا تحقق الوعيد ؟

كل الإرهاصات تدل على اتجاه معين للأحداث .

ومن خلال حماقات الغرب ، وحماقات إسرائيل ، يتم قدر الله في إمداد الحركة الإسلامية بمزيد من بواعث الاستمرار .

إن الغرب – بحماقته – قد أعلن الحرب على الإسلام في كل الأرض ، ودعواه الظاهرة أنه يحارب الإرهاب ، وإنه يحارب الإرهاب عامة من حيث المبدأ ، وليس الإرهاب الإسلامي وحده .

ودعواه داحضة من جهتين : الجهة الأولى أنه يساعد الإرهاب الإسرائيلي بكل وسائل المساعدة ، ويمده بالمال والسلاح والتأييد الأدبي والسياسي ليقتل المسلمين ، ويجليهم من أرضهم ويستولي عليها ، ويهين المقدسات الإسلامية ، وهو آمن من كل رد أو ردع لأن الغرب يداري على جرائمه ، بل يباركها ولا يخفي تأييده لها . والجهة الثانية أنه يصف كل اتجاه إسلامي أيّا كان لونه أو أسلوبه بأنه إرهاب ، ليطالب بحظره ، والتضييق عليه ، وتجفيف منابعه . فكل مطالبة بتحكيم شرع الله إرهاب ، وكل التزام بزي الإسلام إرهاب ، وكل استنكار للعدوان على المسلمين إرهاب ، وحتى تحفيظ القرآن إرهاب !!

ونتيجة هذه الحماقة أن يستيقن المسلمون في كل الأرض أن الغرب الصليبي لا يريد الإسلام . ويكون رد الفعل الطبيعي هو الإصرار على الإسلام ، والإصرار على التمسك به ضد هذه الحرب الصليبية الغاشمة ، التي تكشف عن وجهها بلا خفاء .

---

(130) سورة الإسراء [4 – 8] .

أما إسرائيل فإنها – بحماقة – تصر على إذلال العرب والمسلمين إلى آخر قطرة من كيانهم . وحين يتم لإسرائيل ما تريد من السيطرة الشاملة ، السياسية والحربية والاقتصادية والإعلامية ، فما رد الفعل الطبيعي عند المسلمين ، وهم يرون الأرض كلها تساند العدوان اليهودي ، وتأبى أن تعترف بحق واحد للمستضعفين في الأرض ؟

هل هناك رد فعل متوقع ، إلا اللجوء إلى الجهاد الإسلامي للدفاع عن وجودهم المهدد ، وكيانهم المسلوب ؟

وهكذا يسلط الله حماقات الصليبية الصهيونية على الأمة لتستيقظ من سباتها وتعود إلى الإسلام !

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ، وَأَكِيدُ كَيْداً ، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً) [131] .

والغريب أن المؤرخ البريطاني توينبي كان قد توقع في الخمسينيات من هذا القرن الميلادي حدوث هذه اليقظة ! قال : إن الإسلام الآن قد نام نومة أهل الكهف ، ولكن النائم قد يصحو إذا وجدت دواعي اليقظة . وقال إن استمرار الغرب في الضغط على الشعوب المستضعفة قد يوجد سببا ليقظة الإسلام ، ليتولى تحرير هذه الشعوب [132] .. وكانت هذه لفتة ذكية من رجل درس عبرة التاريخ . ولكن الصليبية الصهيونية لا تستمع لصوت العقل ، ولو كان صادرا من أحد أبنائها ، لأن الحقد على الإسلام في قلبها أقوى من صوت العقل !

ولكن توينبي – مع ذلك – لم يلتفت إلى نقطة مهمة في الموضوع .

إن اليقظة الإسلامية هي العودة إلى النبض الطبيعي لهذه الأمة ، التي صاحبت هذا الدين وعاشت به وعاشت له أربعة عشر قرنا متواصلة ، وإن كانت قد غفلت عنه فترة من الوقت . فهي لا تحتاج إلى أسباب خارجية لتحدثها . إنما أسبابها كامنة في ذاتها . سواء في كون هذا الدين هو دين الفطرة ، الذي تستجيب له الفطرة السليمة استجابة تلقائية ، أو في الصحبة الطويلة لهذا الدين ، أو لكون أزهى فترات التاريخ الإسلامي هي الفترات التي كان الناس فيها ألصق بهذا الدين وأكثر استجابة لمقتضياته . وكلها أسباب تجعل احتمال اليقظة موجودا دائما في كيان الأمة ، كما أشار إلى ذلك المستشرق جب H.R.Gibb في كتابه " وجهة الإسلام ? Whither Islam " الذي قال فيه إن أخطر ما في هذا الدين أنه ينبعث فجأة دون أن تعرف السبب في انبعاثه ، ودون أن تستطيع أن تتنبأ بالمكان الذي يمكن أن ينبعث فيه !

---

(131) سورة الطارق [15 – 17] .

(132) انظر " الإسلام والغرب والمستقبل " لتوينبي ، ترجمة الدكتور نبيل صبحي ص 73 .

وإنما ضغط الغرب أو غيره من الأسباب مجرد " منبهات " إضافية ، قد تؤثر في سرعة اليقظة أو اتساع مداها ، ولكن اليقظة ذاتها لا تتوقف على وجود هذه المنبهات ..

* * *

وحين تعود الأمة عودة صادقة إلى الإسلام تتغير أمور كثيرة مما يجري اليوم في الأرض ، لا بالنسبة للأمة الإسلامية وحدها ، ولكن بالنسبة للبشرية كلها . فقد أنزل الله هذا الدين ليخرج البشرية كلها من الظلمات إلى النور ، وقال لأهل الكتاب خاصة : (**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**) [133] .

والبشرية اليوم – في ضلالها وحيرتها وضياعها – أحوج ما تكون إلى نور الإسلام ، وأحرى أن تدخل أفواجا في دين الله ، حين تجد النموذج التطبيقي الصحيح ، في الأمة الإسلامية حين تعود عودة صادقة إلى الدين الصحيح .

---

[133] سورة المائدة [15 – 16] .

الفهرس

مقدمة

أحوال الأمة في القرنين الأخيرين

أمراض العقيدة

أمراض السلوك

الحصيلة النهائية لأمراض العقيدة وأمراض السلوك

(1) التخلف العقدي

(2) التخلف الأخلاقي

(3) التخلف الحضاري

(4) التخلف العلمي

(5) التخلف الاقتصادي

(6) التخلف الحربي

(7) التخلف السياسي

(8) التخلف الفكري

منهج التغيير في حركة التنوير

الإنجازات الكبرى لحركة التنوير

قضية تحرير المرأة

قضية حرية الفكر

الحرية السياسية

حصيلة التنوير في قرنين من الزمان

المستقبل للإسلام